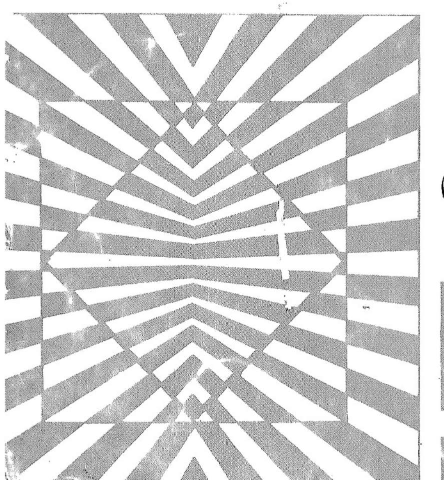


علم الإنسان

تأليف

فوزية رمضان أيوب



مكتبة الشباب (١٥)

إهـــــداء2005

أ.د/ محمد عثمان نجاتي

القاهرة

مكتبة الشباب

سلسلة تصدرها ادارة النشر
بالهيئة العامة لقصور الثقافة

رئيس مجلس الإدارة
حسين مهران

رئيس التحرير
فؤاد قنديل

المراسلات : باسم رئيس التحرير على العنوان التالى :
١٦ أ شارع امين سامى - قصر العينى - القاهرة



تاليف

د. فوزية رمضان أيوب

استاذ الاجتماع - كلية الدراسات الانسانية

جامعة الأزهر

مكتبة
الشباب

مقـــدمة

علم الانسان (الأنثروبولوجيا) من العلوم الحديثة التى بدأت بصورتها الحديثة فى أوروبا منذ عصر النهضة ، وان كانت بعض الكتابات السابقة مثل مقدمة ابن خلدون ، تعتبر من الاسهامات المبكرة فى مجال علم الانسان .

فى عصر النهضة تمت عدة استكشافات جغرافية لبلاد وشعوب خارج أوروبا ، ونتج عن المعلومات التى كتبت عن تلك الشعوب تغيير فى الفلسفات القائمة حينذاك ، عن البشر والحضارة ، وطبيعة المجتمع الانسانى وتطوره . استفاد علم الانسان من كتابات الرحالة والمبشرين المسيحيين فى مراحل نشـــأتـــه الأولى ، ثم شجعـت الـدول الاستعمـاريـــة الأنثروبولوجيين على القيام برحلات دراسية للمجتمعات المتخلفة حضاريا ، التى أعتبروها فى ذلك الوقت مجتمعات بدائية ، أو على الأصح شبيهه بالمجتمعات البدائية التى تمثل المراحل الأولى لنشأة الحياة الانسانية . واستعانوا بما توصل إليه الأنثروبولوجيون من معلومات فى تحسين ادارتهم للمجتمعات المستقرة .

ثم تبلورت الدراسات الأنثروبولوجية خلال القرن التاسع عشر لينشأ علم الانسان كعلم يدرس اساليب حياة الشعوب وتنوعها وتغيرها . وتطور علم الانسان بعد ذلك

واتسع مجاله وتعددت دراسات علمائه وتفرع العلم إلى ثلاثة فروع رئيسية هى :

أولا : علم الانسان الفزيائى أو علم السلالات البشرية . ويبحث فى تصنيف السلالات البشرية وأسس هذا التصنيف . ويرتبط ارتباطا وثيقا بعلم حفريات ما قبل التاريخ ، وكذلك بعلم التطور البشرى .

ثانيا : علم الانسان الثقافى ويبحث فى خصائص الثقافة وعناصرها . وقد ظهرت فى هذا المجال عدة اتجاهات توضحها المدارس التالية : المدرسة الوظيفية ، المدرسة التطورية ، مدارس الانتشار الثقافى .

ثالثا : علم الانسان الاجتماعى : ويهتم بدراسة النظم الاجتماعية السائدة فى المجتمعات ـ وخاصة المجتمعات البدائية ـ مثل نسق القرابة والزواج والأسرة وما يرتبط به من عادات اجتماعية . وقد ظهر فى هذا المجال عدد من النظريات هى :

النظرية التقليدية ـ والنظرية التطورية ـ والنظرية الاقتصادية . والنظرية المثالية أو الدينية .

كما يدرس علم الانسان الاجتماعى ، النظام الاقتصادى للمجتمعات البدائية بمراحله المختلفة ، مرحلة الصيد وجمع الثمار ، ومرحلة الرعى ، ومرحلة الزراعة البسيطة ثم المتقدمة ، وكذلك مرحلة الصناعة . وما يرتبط بهذه المراحل من ظواهر اقتصادية اجتماعية مثل الملكية وملحقاتها والتبادل التجارى .

ويدخل فى نطاق علم الانسان الاجتماعى كذلك دراسة الحياة السياسية والحياة الدينية لدى الجماعات البدائية ، وما تفرع عن تلك الدراسة من مذاهب وآراء .

وقد حاولت فى هذا الكتاب إلقاء الضوء على النقاط سابقة الذكر لأوضح للقارىء مفهوم علم الانسان ومجاله وموضوعاته .. وأرجو أن أكون قد نجحت فى ذلك .

والله الموفق ...

أ. د. فوزية رمضان أيوب

سبتمبر ١٩٨٩

الفصـل الأول

علم الانسان « الانثروبولوجيا »
موضـوعه وفروعه

يعتبر علم الانسان أو الدراسات الانثروبولوجية ، بمفهومها العام أوسع الدراسات الاجتماعية نطاقا وأشملها موضوعا ، وأغزرها مادة ، وأقدمها عهدا . وذلك لأن النظرة التقليدية لهذه الدراسات كان يفهم منها الدلالة على كل دراسة تتعلق بنشأة الاجناس البشرية والثقافات والحضارات الانسانية والنظم الاجتماعية . والبحوث المتعلقة بالصفات الفزيولوجية الطبيعية المميزة للعائلة البشرية ، وكذلك الآراء المستنبطة من مخلفات الكائنات الحية التى عثر عليها فى الحفريات التى ترجع إلى عهود تاريخية ساحقة وعصور جيولوجية قديمة فضلا عن النظريات والأفكار الشائعة عن عادات وتقاليد وأساطير وأمزجة الجماعات البدائية ، وما يقال عن طرقها فى التفكير ، ووسائلها فى التفاهم والتعبير ، ومدى ارتباطها بظروف البيئة الطبيعية ، وتأثر حياتها الاجتماعية ونظم معيشتها بمقتضياتها الاقليمية والمحلية .

وهذه النظرة العامة الشاملة جعلت موضوع الدراسات الانثروبولوجية شاملا لكل مظاهر الحياة الطبيعية الفيزيقية والحيوية والنفسية والاجتماعية للانسان وأينما وجدت على وجه

البسيطة باعتبار أن الانسان يمثل نوعا وجنسا وسلالة وشعبا وقومية ولغة وثقافة .

ويطلق اصطلاح « علم الانثروبولوجيا »(ويرجع اصطلاح علم الانثروبولوجيا Anthropology إلى أصل يونانى يتألف من كلمتين انثروبوس Anthropos بمعنى انسان ولوجوس بمعنى علم) على الدراسة النظرية العلمية الكاملة للانسان أى من حيث أنه كائن حى يتألف من جسم وعقل ، ويتميز بخصائص طبيعية فيزيقية فى تكوينه وتطوره ونموه ، وهذه الخصائص تميزه عن بقية الكائنات الحية الأخرى ، كما يدرس علم الانثروبولوجيا الانسان من حيث أنه كائن اجتماعى له وظائف اجتماعية وآثار حضارية ومعالم ثقافية ومظاهر فكرية ، ولذلك فهو يتشعب إلى شعبتين عامتين ومع ذلك فالشعبتين مرتبطتين بشدة لأن أحد أغراض الانثروبولوجيا أن تكشف عن العلاقات القائمة بين سمات الانسان الطبيعية وبين خصائصه التى اكتسبها بمعيشته فى الجماعة .

الشعبة الأولى :

الانثروبولوجيا الطبيعية الفيزيقية وهى التى يطلق عليها اصطلاح Physical Anthropology أو تشريح السلالات البشرية Human Racial Anatomy وتعنى هذه الشعبة بدراسة وتشريح البناء الجسمانى والهيكل الفيزيقى الطبيعى للنوع الانسانى Homo - Sapiens وتتبع التطور التاريخى للتكوين العضوى والخصائص المميزة للسلالات البشرية والتى بمقتضاها يصنف العلماء الاجناس إلى سلالات وعائلات بشرية متفاوته فى لون البشرة أو شكل الشعر أو طول القامة أو شكل وحجم الرأس ولون العين .. الخ .

الشـعبة الثانية :

الشعبة الثانية وتشمل الانثروبولوجيا الثقافية Cultural Anthropology والانثـروبـولـوجيـا الاجتمـاعيـة Social Anthropology على أن المعنى ـ الانثروبولوجى للثقافة يختلف عن معناها الدارج الذى يقربها من التعلم ، فعلماء الانثروبولوجيا يعرفون الثقافة بأنها ذلك الجزء من البيئة الانسانية الذى أوجده الانسان بنفسه ، فيميز عادة بين ما تجود به البيئة الطبيعية وبين ما يكون ثمرة من ثمرات الجهود البشرية . فالطبيعة تزود الانسان مثلا بالمواد الخام التى يستخدمها فى تحقيق وأشباع حاجاته الضرورية والكمالية ، والثقافة هى التى تحدد وتوضح وتعكس كيف تستخدم الجماعات هذه المواد فى تحقيق أغراضها ، وكل نشاط يقوم به الانسان فى البيئة والكيفية أو الأسلوب الذى يمارس به هذا النشاط يدخل فى نطاق الثقافة . هذا ولا تقتصر الثقافة على المهارات والأساليب العلمية ، وانما تتضمن أيضا النواحى النفسية والقوى السيكولوجية والقيم الخلقية والآراء المذهبية والأفكار الفلسفية ، والمعايير الاجتماعية التى تحكم بها الجماعة على الأنظمة وانماط السلوك والمعاملات والعلاقات .

ولذلك فان موضـوع علم الانثروبـولوجيـا الثقافيـة أو الاثنولوجيا(*) يعالج فى الواقع المظاهر الحضارية المادية والروحية للجماعات الانسانية وتؤثر المدرسة الانثروبولوجية الوظيفية فى بريطانيا أن تسمى هذا العلم بالانثروبولوجيا

---

* تهتم الأثنولوجيا اساساً بتحرك السلالات والأجناس أو هجرة الثقافة أو إتصال الشعوب بعضها ببعضٍ وخاصة فى الماضى .

الاجتماعية ، وتحدد موضوعه بدراسة النظم الاجتماعية التى تمثل وظائف ومظاهر النشاط الانسانى فى جميع المجالات مع العناية بوجه خاص بالنظم الرئيسية للجماعات البدائية أو المتخلفة والتحقيق العلمى والمسح الاجتماعى للقطاعات الاجتماعية التى ظلت فى مستوى أدنى من النمط الشائع فى الجماعات المتمدينة كالاحياء الفقيرة فى المدن الصناعية الكبرى أو أحوال الباعة المتجولين والبحارة والصيادين فى الموانى الكبيرة ، أو كالقطاع العشائرى والبدوى فى المجتمع العربى .

ولقد أصبحت الاثنولوجيا Ethnology والانثروبولوجيا الثقافية Cultural Anthropology علما مستقلا متميزاً فى موضوعه ، فى الربع قرن الأخير من هذا العصر ، وأصبح يختص بالدراسات المتعلقة بنشأة السلالات والأصول الأولى Genus للنوع الانسانى العاقل Homo - Sapiens من الناحية الثقافية والحضارية . ويدخل فى نطاقه دراسته أصول الثقافات والمناطق الثقافية وهجرة الثقافة وانتشارها والخصائص النوعية لكل منها ، ولهذا يعبر عنه باسم الأنثروبولوجيا الثقافية ، وكان يختلط بالأنثروبولوجيا الاجتماعية عند الانجليز ، فكانت الموضوعات التى يدرسها علماء هذا الفرع من البريطانيين ، هى التى يدرسها علماء الاثنولوچيا الأوروبيون والأمريكيون ، وكانت الانثروبولوچيا الاجتماعية والاثنولوچيا يعتبران فى نظر علماء القرن التاسع عشر ، علما واحدا ودراسة واحدة . لأن كل منهما يبحث فى الثقافات والمجتمعات الانسانية .

وكانت الجماعات البشرية والمجموعات السلالية تصنف على أساس ثقافاتها ، وكانت عناية العلماء عامة هى تتبع الأصول الأولى

للثقافات والحضارات الانسانية وتحليلها ، وبعد أن اتجهت أنظار العلماء إلى العناية بالدراسة الوظيفية لنظم الجماعات Functional Approach وتوجيه مزيد من الأهتمام إلى البيئة الاجتماعية Social structure وبيان العلاقات الوظيفية والتكاملية بين النظم الاجتماعية ، واغفال الجانب النشوئى والتاريخى أو التحلل من أهمية النسبية فى البحوث الاجتماعية ، ظهر الاتجاه إلى فصل الدراسة الاثنولوجية عن الدراسة الانثروبولوجية الاجتماعية ، وبذلك استقل كل من فرعى الانثروبولوجيا أحدهما عن الآخر ، واستمرت الانثروبولوجيا الاجتماعية تحتل بؤرة الأهتمام بالدراسات الانثروبولوجية فى بريطانيا بينما ظلت العناية بدراسة الثقافة وتحليلها أهم ما يشغل اذهان علماء الانثروبولوجيا الأمريكان .

ويبدو أن هناك اختلافا واضحا فى المنهج بين فرعى الدراسة الانثروبولوجية فقد يعتمد العلماء على نفس المعلومات الاثنوجرافية(*) عند دراسة ظاهرة من الظواهر ولكن يختلف عالم الاثنولوجيا عن عالم الانثروبولوجيا الاجتماعية فى الانتفاع بهذه المعلومات الاثنوجرافية وفى طريقة معالجتها . ويذكر لنا ايفانز برتشارد Evans Pritchard(*) مثلا يوضح الفرق بين الدراستين

---

* المقصود بالمعلومات الأثنوجرافية هو البيانات التى يجمعها الباحث عن طريق الدراسة الإثنوجرافية أو الوصفية لحياة جماعة ما ومابها من ظواهر ونظم إجتماعية .

* ايفانزبرتشارد ، شغل منصب استاذ كرسى الأنثروبولوجيا الاجتماعية فى جامعة اكسفورد سنة ١٩٤٨ . فى سنة ١٩٥٠ القى محاضرة فى جامعة أكسفورد تناول فيها موضوع « الأنثروبولوجيا الإجتماعية ، وهل هى علم كالعلوم الطبيعية ، أو أنها أحد العلوم الإنسانية ، ولم يتردد فى أن ينضم الى الرأى الثانى .

حين* تتناول كل منهما نفس الظاهرة مثل عبادة أرواح الموتى أو عبادة الاسلاف ، ففى حالة الانثروبولوجيا الاجتماعية تؤول العبادة وتفسر فى ضوء النظم الاجتماعية الأخرى المتصلة بها كنظام الأسرة وبناء العائلة ونظام القرابة إلى غير ذلك بأعتبار أنها عنصر من عناصر النسق الاجتماعى العام للجماعة التى تنتشر فيها تلك العبادة .

أما بالنسبة للعالم الاثنولوجى ، فانه يدرس هذا النوع من العبادة كجزء من الثقافة العامة ، ويعنى بدراسة الافعال والعادات والممارسات التى يقوم بها الأفراد المعتنقون لهذه الديانة تجاه الأرواح التى يعبدونها أو يتقربون اليها بتقديم القرابين فى المناسبات الدينية ، والطقوس الجنائزية وما إلى ذلك من الأمور التى تعتمد على التحليل والتخمين ، وقد يلجأ عالم الانثولوجيا إلى التبرير والتفسير الاستنباطى والنفسى فى علاج هذه الممارسات ، كما قد يحاول ارجاع هذه العناصر إلى أصولها الأولى Origins ومعنى ذلك أن الاثنولوجيا تعنى بصياغة حقائقها فى حدود التاريخ وعلم النفس بخلاف الانثروبولوجيا الاجتماعية التى تهتم بتتبع

= والواقع أنه إذا كان إيفانز بريتشارد يشغل مركزا هاما بين علماء الأنثروبولوجيا فان ذلك يرجع أولا وقبل كل شىء إلى نوع الدراسات الحقلية التى قام بها والتى يضمن نتائجها فى كتبه . له دراسة هامة عن مجتمع « النوير » تمتاز دراساته بميزتين متكاملتين :

* الميزة الأولى : اهتمام هذه الدراسات باظهار التساند والتفاعل القائمين بين النظم الاجتماعى السائدة فى المجتمع بشكل لم يتوفر فى كثير من الدراسات الاخرى

* الميزة الثانية : الإهتمام بكتابة البحث الانثروبولوجى بمستوى معين من التجريد . ولكى تبلغ الدراسة مستوى عالى من التجريد والتحليل البنائى ، لابد من التركيز على دراسة الجماعات التى تتميز بدرجة عالية من التماسك ، والتى تثبت قدرتها على البقاء والإستمرار والصمود ضد عوامل التغير لأطول وقت ممكن ، بحيث تحتفظ على مر الأجيال بكيانها وهيكلها العام رغم تغير الأفراد الذين يؤلفونها . .

العلاقات الوظيفية التى تربط الظاهرة التى يدرسها بالبنية الاجتماعية العامة للجماعة ودور هذه الظاهرة من الفاعلية فى الحياة الروحية والمادية والاجتماعية .

كذلك يلجأ عالم الاثنولوجيا إلى تتبع آثار الظاهرة الثقافية فى مختلف الجماعات الانسانية ليتعرف إلى موطنها الأصلى ومدى انتشارها ، وبذلك تعتبر المدرسة الإنتشارية Diffusionists من أهم المدارس الإثنولوجية ، فمثلا نجد أن بعض علماء الإثنولوجيا الإنتشارية حينما يدرسون عادة أو ممارسة اجتماعية أو عقيدة وطقوس دينية فانه يتتبعونا أو يتتبعون مثيلاتها أو أغلب عناصرها فى جماعات متعددة ، يحللونها إلى أبسط أشكالها ويستخلصون من ذلك موطنها الأصلى باعتبار أنها توجد فى أبسط مظاهرها فى ذلك الموطن . وهذا هو شأن دراسات معظم علماء الإثنولوجيا الأوائل أمثال « جيمس فريزر » فى مؤلفه المشهور (الغصن الذهبى) و « تايلور » فى كتابه (الثقافة البدائية Primitive culture) فقد حوت مؤلفات هذين العالمين وكثير غيرهما على عادات وممارسات اجتماعية مأخوذة من جماعات مختلفة وفى أزمنة متباينة بقصد بيان مدى شيوعها أو إظهار مقدار عموميتها وانتشارها أو إبراز أوجه التشابه بين عناصرها فى مختلف العصور وفى مراحل تقارب المستويات الحضارية للجماعات البشرية ، وتذكر على سبيل المثال لا الحصر نظم المحرمات المقدسة المعروفة اصطلاحيا باسم التابو Tabu والتى بمقتضاها يمتنع أفراد الجماعة عن رؤية أو لمس شخص أو شىء أو اتيان عمل من الأعمال أو تناول طعام من الأطعمة . وهذه النواحى لها صبغة القداسة سواء كان مصدر التقديس أرواح أو آلهة . وكذلك الشأن بالنسبة لعقيدة التوتمية ، فإنها تسود على أشكال ومراتب مختلفة فى كثير من الجماعات

المتخلفة والمنعزلة عن تيار الحضارة الانسانية وترتكز هذه العقيدة على اتخاذ القبيلة أو الجماعة البشرية رمزا لهـا تقدسه وتعتقد أنها منحدرة عنه ، ويكون هذا الرمز المقدس « التوتم » حيوانا أو نباتا أو جمادا أو ظاهرة طبيعية وقد اختلفت آراء علماء الاثنولوجيا فى معرفة ابسط أشكالها ، فبعض العلماء أمثال العالم الفرنسى أميل دوركايم قد اعتبر أن شكله الأول البسيط يوجد لدى القبائل الاسترالية الأصلية ، والبعض الآخر أمثال العالم الأمريكى « بواس Boas " تلمس هذا الشكل عند هنود أمريكا الحمر ، وتتبعه العالم الاسكتلندى روبرتسون سميث عند القبائل العربية أيام الجاهلية . ومن العادات التى حظيت بعناية علماء الاثنولوجيا عادات وأد البنات والثأر والزواج الاغترابى Exogamy أو الزواج من خارج الوحدة الاجتماعية .

ومن أهم الموضوعات التى يعالجها علماء الاثنولوجيا ، الثقافة وانماطها وانتشارها وانصهار السلالات البشرية .

أما الانثروبوبولوجيا الاجتماعية الوظيفية فقد تحدد موضوعها بدراسة النظم الاجتماعية للمجتمعات المتخلفة ، والتحقيق العلمى لبعض الظواهر الاجتماعية فى القطاعات التى ظلت فى مستويات أدنى من مستويات القطاعات المتحضرة التى تشترك معها فى وحدة سياسية واحدة ، كالقطاع العائلى والعشائرى مثلا فى المجتمع العربى ، أو كالاحياء الفقيرة التى تحتفظ بمستويات ثقافية متخلفة فى المدن الصناعية الكبيرة . والواقع أنه من وجهة النظر التحليلية يمكن اعتبار الانثروبولوجيا الاجتماعية فرعا متخصصا من الدراسات الاجتماعية ، يحصر عنايته فى دراسة القطاعات المتخلفة من المجتمعات المتمدينة إلى جانب انفراده

بالأهتمام بالجماعات بسيطة التكوين والمجتمعات البدائية ، ومعنى ذلك بصفة عامة أن ما يميز فرعى المعرفة هو الفارق فى مجال الدراسة فحسب ، وإن كان هناك تباينا فى المناهج المتبعة فى الدراسة فى كل من العلمين ، فعالم الاجتماع قد يدرس الظاهرة أوْ المشكلة عن طريق الوثائق والاحصائيات والبيانات التى تعد له ، أى دون أن يدرسها دراسة مباشرة ، أما عالم الأنثروبولوجيا الاجتماعية فانه يدرس النظم دراسة ميدانية مباشرة بأن يعيش فى الجماعة ويقيم فيها مدة طويلة ويدرس الجماعة كلها ككل مترابط متماسك فى بنيته ونظمه وبيئته العامة أى من الناحية الايكولوجية وهو انما يفعل ذلك لأن المدرسة الوظيفية تحاول أن تتعرف على الدور الوظيفى لهذه الظاهرة فى النسق الاجتماعى العام والبنية الكلية للجماعة .

والواقع أن هناك صلات وثيقة بين الانثروبولوجيا الاجتماعية ووجهة نظر المدرسة الفرنسية الاجتماعية إلى الحد الذى جعل رائد علم الانثرويولوجيا الاجتماعية رادكليف براون يطلق عليها اسم علم الاجتماع المقارن Comparative sociology.

وتد شملت الأنثروبولوجيا الاجتماعية دراسة النظم الاقتصادية فى المجتمعات المختلفة إلى أن استقلت هذه الداسات إلى حد ما مكونة فرعا من الانثروبولوجيا ، يسمى الانثروبولوجيا الاقتصادية .

ومن فروع الانثروبولوجيا أيضا الانثروبولوجيا التطبيقية . وهى فن علمى عملى يرتكز على محاولة الانتفاع بالنتائج التى يصل اليها البحث العلمى التحليلى فى فروع المعرفة السابقة ، واستغلالها فى النواحى العملية التطبيقية فى مقابلة ومُعالجة مشكلات الجماعات المتأخرة أو القطاعات المتخلفة من المجتمعات المتمدينة .

ومن فروعها كذلك تحسين السلالات أو الاثنوجنيكا Ethnogenics وهو علم نظرى وفن تطبيقى عملى ، ففى مظهره العام يعنى بالدراسات الايوجينية Eugenics التى ترتكز على البحوث النظرية والعملية المتعلقة بتحسن السلالات البشرية وترقية مستوياتها وينطوى هذا اللون من الدراسة على الوقوف على أثر الوراثة وانتقال الخصائص المميزة للسلالات الأصلية إلى فروعها ، سواء كانت هذه الخصائص صفات فيزيقية أو نفسية وعقلية ، ومدى ما يمكن ادخاله من التحسين لضمان استيفاء الصفات الحسنة فى السلالة أو تقوية الخصائص عن طريق الافادة بالدراسات البيولوجية الحيوية والوسائل الاجتماعية . وهذه هى الوسائل الايجابية ، أما الوسائل السلبية فهى محاولة عزله بالخصائص المضعفة للسلالة أو النوع ، ويدخل فى نطاق هذه الوسائل تقليل معدل تكاثر السلالات التى فى مرتبة دنيا

من الناحية الفيزيقية أو العقلية وفى محاربة السموم الجنسية كالكحول ومنها منع تكاثر المجرمين بالعادة والمعتوهين وضعاف العقول فى كل سلالة من السلالات ، ومنها أيضا منع التزاوج والاختلاط الجنسى بين السلالات التى تتفاوت فى خصائصها الفيزيقية والعقلية تفاوتا كبيراً . كما نجد موقفا غريبا لتحسين السلالات عامة يهدف إلى الأخذ ببعض الاجراءات التى تقضى بالأكثار من معدل التزايد بالنسبة للسلالات المتقدمة حضاريا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا وتقليل هذا المعدل بالنسبة للسلالات المتخلفة باعتبار أنها تحمل بذور الضعف الصحى والوهن الثقافى واحيانا الخلقى .

ومن الممكن أن نوجز فروع علم الانسان أو الانثروبولوجيا فى أنه علم قد أصبح ولا سيما فى الخمسين سنة الأخيرة علما مركبا

شديد التركيب - وهو من أكثر العلوم تعقدا فهو فى الحقيقة يحتوى على علمين كبيرين ، هما علم الانثروبولوجيا الفيزيائية أو علم الانسان الفيزيائى ، وعلم الانسان الثقافى . وكل من هذين العلمين يحتوى على عدة علوم ، وذلك إلى جانب علم ثالث هو علم الانسان التطبيقى . ثم هو بعد ذلك يتصل بكثير من العلوم الانسانية وغير الانسانية ، كعلوم الاجتماع والنفس والحياة والتاريخ والآثار والتشريح ، ثم بكثير من العلوم الفيزيائية والجيولوجيا .

الغرض من دراسة علم الانسان :

علم الانسان فى أساسه علم مقارن لأنواع العقليات وانماط التفكير القائمة بين البدائيين والمتطورين وهو علم واسع المجال يدرس ظواهر شتى فى أزمنة متباينة ، ولذلك فلدراسته أغراض متعددة :

أولا : تفسير الطبيعة الانسانية فى شتى مظاهرها عند البدائيين والمتطورين يؤكد العلماء أن ثمة طبيعة انسانية تؤدى بالانسان إلى أن يفعل هذا ولا يفعل ذاك ، وعلم الانسان يبحث عن تعريف لتلك الطبيعة وعما إذا كانت مظاهر تلك الطبيعة الانسانية واحدة عند السلالات البشرية المختلفة وما هو سر اختلاف الشعوب فى ألوانها ولقائها ونظمها الاجتماعية والثقافية ، ولذلك فهو يدرس المتشابهات والمتناقضات بين الشعوب المختلفة ، القديم منها والحديث .

ثانيا : أن دراسات علم الانسان هى بمثابة مرآة يرى فيها الانسان المعاصر تاريخ حياته ونظمه . فهو يرى فيها كيف

كانت النظم العائلية التى تسير عليها فى الوقت الحاضر ، منذ آلاف السنين مثلا ، وكيف كان اجدادنا القدامى والذين عاشوا فى العصور السحيقة ، تاريخية كانت أم قبل التاريخ ، يديرون شئونهم السياسية والاقتصادية . وكيف سار التطور الانسانى من الناحيتين البيولوجية والثقافية ، وهل يخضع التطور الانسانى لمبادىء وقوانين ؟

ثالثا : أن علم الانسان يفسر لنا كثيرا من مظاهر حياتنا الحالية ، وهى المظاهر التى لا نستطيع فهمها الا بالرجوع إلى ما كانت عليه عند البدائيين ، أو بدراسة صورها التى كانت عليها فى الأزمنة السابقة .

رابعا : من أغراض علم الانسان ، البحث فى أصول النظم الاجتماعية والعادات والتقاليد ، وما نشأ منها نتيجة للبيئة الطبيعية من ناحية ، أو لاداء وظائف اجتماعية معينة من ناحية أخرى .

خامسا : ولقد كان للدراسات الانثروبولوجية وظيفة هامة تؤديها ، حتى قبل أن تنشأ كعلم منهجى معترف به ، إذ كانت تستخدم لتعريف الأوربيين بثقافات الشعوب الآسيوية والافريقية التى يتعاملون معها ، إذ كانوا يستفيدون من الدراسات التى يقوم بها الانثروبولوجيون فى التعرف على نفسية الشعوب وعاداتها وتقاليدها تمهيدا للتوصل إلى افضل الطرق فى التعامل مع هذه الشعوب أو السيطرة عليها .

لقد قدم علم الانسان للعسكريين والشركات الرأسمالية والمبشرين الدينيين خدمات لا حدود لها منذ القرن السابع عشر ، حتى أن بعض العلماء ليذهب إلى أن علم الانسان قد نشأ منذ البداية لخدمة الاستعمار وتبريره وتسهيل مهمته .

سادسا : يقوم علم الانسان بتسجيل عادات المجتمعات البدائية المعاصرة فى كتب ومجلات ومقالات وصور فوتوغرافية وأفلام سينمائية وأشرطة .. وذلك لحفظ التراث الانسانى حيا على مر العصور المستقبلة والاجيال القادمة . وذلك قبل أن تضيع معالم تلك المجتمعات وما يسودها من نظم ، وقبل أن تختفى هذه المعالم نتيجة للاتصالات اللامتناهية بين تلك الشعوب والشعوب المتحضرة ، تلك الاتصالات التى أفقدتها الكثير من خصائصها ومميزاتها ، وتسجيل نظم هذه الشعوب وعاداتها الأصيلة يعتبر ولا شك ثروة علمية ممتازة ، لأن تلك التسجيلات تمثل جزءا هاما من التراث الانسانى فى صورته البدائية شبه النقية .

الفصل الثانى

علم الانسان الفزيائى ـ السلالات البشرية

أن علم الانسان الفيزيائى يتناول الانسان من حيث هو جزء من العالم أو كظاهرة طبيعية ، يتناوله فى جميع مراحله التطورية منذ القدم حتى الآن . ولذلك فان موضوع علم الانسان الفيزيائى يدرس الانسان من حيث سماته الجسمية وما عسى أن يكون موجودا من فوارق بين هذه السمات من مجموعة بشرية إلى مجموعة أخرى ، والعوامل التى أدت إلى تلك الفوارق الجسمية بين المجموعات البشرية الحديثة المختلفة ، وما إذا كانت الفوارق بين هذه المجموعات مجرد فوارق جسمية لا ينتج عنها فوارق عقلية أو نفسية أو بيولوجية .

أن البشر جميعا ينتمون إلى نوع واحد ينسب إلى جنس واحد من أجناس عائلة حيوانية واحدة ، هو النوع العاقل من جنس الانسان . ولكنه يختلف عن الأنواع الحيوانية الأخرى ، فى أنه ليس مضطرا للحياة فى بيئة واحدة ، بل هو يستطيع أن يلائم بين نفسه وبين مختلف البيئات الطبيعية من الاصقاع القطبية إلى الأقاليم الاستوائية الحارة ، ومن قفر الصحراء إلى الادغال الكثيفة ، ليس هذا فحسب بل أنه يختلف عن معظم الأنواع الحيوانية الأخرى ، فى أنه يتمثل فى أنماط عديدة ونماذج لا حصر لها ، منه الطويل ومنه القصير ، ومنه الأبيض ومنه الأسود ، ومنه ذو الأنف الاقنى ومنه ذو الأنف الافطس . ولو حاول باحث أن

يحصى كل الاختلافات الموجودة فى كل صفة جسمية فى البشر لأعياه الحصر ، هذا المجال الواسع الذى يتحرك فيه بنو البشر من حيث درجة الذكاء والقدرات العقلية أو المهارات الفنية والمزاج النفسى وما إلى ذلك مما يكون العديد من نماذج الشخصية . وفوق ذلك فان البشر يتحدثون بألسنة مختلفة ويعتقدون معتقدات متباينة ، ويكونون شعوبات متعددة .

ولذلك كان من الطبيعى أن يتساءل الفرد من أى بقعة على الأرض ، عن نفسه ، وعن موضعه بالنسبة للشعوب الأخرى التى يعاديها أو يهادنها أو يحالفها ، وقد ساعد على ذلك تلك الغريزة القبلية التى تجعل الفرد يتكتل مع أفراد قبيلته أو مع أفراد شعبه وتجعلهم جميعا يميزون أنفسهم عن غيرهم بلهجتهم الخاصة . وتقاليدهم الاجتماعية الخاصة ، ثم يطلقون على أنفسهم أسماء خاصة ويحاولون أن يجعلوا من أنفسهم وحدة حيوية خاصة فى خضم الأمم والشعوب ومن ثم نشأت العصبية القبلية ثم العصبية الشعبية التى تظهر لنا فى أبسط صورها بين الشعوب البدائية التى تعتبر كل غريب عدوا لها . ولقد ظلت هذه النزعة سائدة فى معظم الشعوب والأمم حتى بعد أن خرجت من طور البربرية ودرجت فى سلم المدنية والحضارة .

اسس تصنيف السلالات :

أن الاختلاف فى الصفات الجسمية وفى الصفات العقلية بأوسع معانيها (اللغة والتقاليد والمعتقدات .. الخ) داخل النوع الواحد أذن هو الصفة المميزة للانسان ، فمن الطبيعى أن نناقش الأسس التى ينقسم فيها البشر ويصنفون إلى جماعات وسلالات ، ونرى إلى أى حد يختلف البشر حقيقة بعضهم عن البعض الآخر .

من الناحية البيولوجية لا يختلف فردان من بين ملايين البشر الذين يعيشون على سطح الكرة الأرضية ، أحدهما عن الآخر كلهم كحيوانات متشابهون ، يستطيعون التزاوج فيما بينهم ، كما أنه ليس من العسير ـ أن شاءوا ـ ايجاد قاعدة للتفاهم بينهم . ويستطيع أى فرد أن يقوم بما يقوم به أى فرد آخر إذا وجد فى نفس البيئة الطبيعية والحضارية ومنح نفس الفرص . ولا محل مطلقا للدعوى التى ترى أن بعض الشعوب بطبيعتها متأخرة عقليا ، وأن بعض الشعوب الأخرى ـ بطبيعتها ـ خلقت للسيادة أو التفوق الذهنى والعقلى .

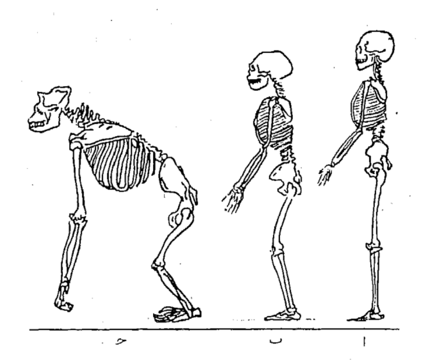
ولقد توسع بعض الكتاب فى التحدث عن السلالات ، فاطلقوها على الأمم والشعوب فقالوا السلالة الفرنسية والسلالة الأرية والسلالة اللاتينية والسلالة اليهودية ، اى أنهم خلطوا بين السلالة والقومية واللغة والدين .

وقد زاد الأمر سوءا تعلق بعض دعاة العنصرية والقومية السياسية بهذا اللفظ بل ومحاولة اكسابه الصفة الشبيهة بالعلمية ، فحملوا اللفظ أكثر مما يحتمل وجعلوه يشير إلى صفات سيكولوجية وحضارية تطغى على كل معنى احيائى آخر ، ولا سيما أن بعض المجردين فى التفكير اللغوى والثقافى قد أقبل على استعماله فى جرأة واسراف ، وقد اقتفى أثرهم الباحثون فى الحضارة والفن والأديان دون أن يدركوا أن أمثال النظرية التى تقول بالسلالة اللاتينية واشباهها لا قيمة لها على الاطلاق وأن التحدث عن السلالة فى غير ميدان الانثروبولوجيا الطبيعية غير ذى موضوع إذ يجب قصرها على الصفات البيولوجية أو الاحيائية فحسب .

فتقسيم البشر إلى سلالات طبقا للغة أو الثقافة ليس له أى سند احيائى صحيح ، فالناس المشتركون فى لغة ما أو ثقافة ما ، ليسوا بالضرورة منحدرين من أصل واحد ، أو أصول متقاربة ، فاللغة تنتقل من شعب إلى آخر احيانا بطريق الغزو أو القهر ، فطالما فرض الفاتحون لغتهم فرضا على المغلوبين ، ومن أمثلة ذلك اللغة التركية التى فرضها آل عثمان على سكان شبه جزيرة الاناضول الذين كانوا يتحدثون الاغريقية قبل الغزو العثمانى والذين يبتعدون بعداً تاما عن السلالة الكبرى التى ينتمى اليها الترك الغزاة ـ وهناك انتشار اللغة العربية بالفتح ، وهو ظاهرة تاريخية هامه . واحيانا يقتبس الغزاه لغة الشعب المغلوب ، فالغزاة النورمان تحدثوا اللغة الفرنسية فى فرنسا بعد غزوهم لها ، ثم تبنوا الانجليزية بعد فتح انجلتره .

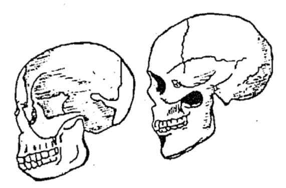
ومن الخطأ أن نتحدث عن السلالة الارية أو السلالة السامية أو السلالة الحامية فهذه كلها مجموعات من البشر ، تتفق فى أنها تتحدث لهجات أو لغات مشتقة من أصول أو عائلات لغوية واحدة .

وعلى الرغم من هذه الحقائق ، فهناك خلافات جسمية بين الشعوب المختلفة هى التى تلفت الانظار اليها وهى التى يهتم بها علم الانثروبولوجيا الطبيعية . فاذا أسلمنا بفكرة الأصل الواحد للنوع العاقل الذى يعمر الأرض ، وسلمنا بفكرة التطور المستمر لاقسام البشر الرئيسية واستبعدنا كل العوامل التى لا تنتقل بالوراثة البيولوجية التى يكتسبها البشر بالتقليد أو الارغام كاللغة والدين والثقافة والحضارة ، علينا أن نركز أهتمامنا فى الصفات الجسمية التى تحملها العوامل الوراثية ، والتى تنتقل بذلك من السلف إلى الخلف ، ومجموع هذه الصفات هى التى تميز جماعات



بعض الهياكل العظمية للمقارنة

ا ـ هيكل إنسان عاقل . ب ـ هيكل إنسان نياندرتال . جـ ـ هيكل غوريلا .





جماجم وعظام المقارنة

جمجمة إنسان عاقل (على اليمين) وجمجمة بلتدون (على اليسار)

وفك ماور هيدلبرج (من اسفل)

البشر بعضها من بعض وتفردها فى مجموعة احيائية خاصة تسمى بالسلالة .

فالسلالة جماعة من البشر يتصفون بصفات جسمية وراثية معينة تميزهم كمجموعة وتفضلهم عن غيرهم من الجماعات البشرية ـ هذه الصفات هى الأسس التى تصنف بناء عليها السلالات البشرية ، وهى أسس يمكن قياسها قياسا دقيقا بحيث لا تترك للوصف العام الذى يتأثر بأسلوب الكاتب أو وجهة نظره الشخصية . وهذه الأسس فى تفاصيلها تحملها عوامل وراثية ، وفى عمومها ذات فائدة فى تقسيم البشر إلى مجموعات سلالية كبرى وإلى سلالات فرعية ، ونستطيع أن نلخص تلك الأسس فيما يلى :

١ ـ لون البشرة :

اهم صفة استرعت الانظار ، من اقدم العصور ، هى لون البشرة ، وقد صنف هادون البشر ـ وفقا لتصنيف حديث ـ إلى ثلاثة مجموعات كبرى ، المجموعة البيضاء والمجموعة الصفراء ، والمجموعة السوداء .

وقد أفرد الأستاذ « اليوت سميث » شعب البحر المتوسط بلون خاص بهم وسماهم بالسلالة السمراء ، ويقصد الكتاب الأوربيون بعبارة السلالة البيضاء الشعوب الأوربية او التى من أصل أوروبى فقط ، رغم أن هناك تفاوت كبير وتدرج واضح فى لون البشرة بين الشعوب التى تسمى بيضاء . كما أنه لا يوجد شعب « أصفر البشرة » بل هناك شعوب بياض بشرتها أو سمرتها أو سوادها يقرب إلى الصفرة .

ومن ناحية أخرى هناك تداخل فى لون البشرة بين سلالات مختلفة تنتمى إلى مجموعات سلالية متباينة . بالاضافة إلى أن لون البشرة يتأثر بالبيئة ، وأن كان هذا التأثير لا يورث .

لهذه الأسباب ولغيرها نجد أنه على الرغم من أهمية لون البشرة ، الا أنه قد سمح بتداخل عدة ظلال من الألوان بعضها فى البعض الآخر ، دون أن يكون عاملا مميزا بين السلالات المختلفة فلون البشرة وحده لا يكفى للتمييز بين السلالات .

٢ ـ شكل الشعر ولونه :

يختلف الشعر فى السلالات المختلفة من ناحية نسيجه ومن ناحية لونه ، أما من ناحية نسيجه فينقسم الشعر إلى ثلاثة أنواع : الشعر المموج (وإن تراوح فى درجة تموجه) ويميز المجموعة السلالية القوقازية ، والشعر السبط المسترسل ويميز المجموعة السلالية المغولية ، والشعر المفلفل أو الصوفى ويميز المجموعة السلالية الزنجية .

ونظرا لأن شكل الشعر صفة لا تتأثر بالبيئة تأثرا سريعا ، كما أنه صفة يمكن أن تورث ، ونظرا لأن كل مجموعة سلالية كبرى تتميز بشكل معين فى الشعر ، فقد استعملها « هادون » فى تصنيف البشر إلى مجموعات سلالية كبرى .

أما عن لون الشعر فهو أسود بين سلالات المجموعة الزنجية وسلالات المجموعة المغولية ، بينما يتفاوت بين الأصفر أو الذهبى أو البنى الفاتح بين سلالات المجموعة القوقازية .

٣ ـ لون العين وشكلها :

أهم ما يلفت النظر هو اللون . وتنقسم العين من حيث اختلاف اللون إلى قسمين ظاهرين هما العيون الفاتحة الملونة ، والعيون السوداء ـ وتتفاوت العيون الفاتحة الملونة فى درجات اللون الرمادى أو البنى أو الأخضر أو الأزرق وهى بصفة عامة تميز المجموعة السلالية القوقازية ـ بينما تميز العيون السوداء المجموعة السلالية الزنجية وتميز العيون العسلية المجموعة السلالية المغولية .

أما من ناحية شكل العين فإننا نلاحظ أن المجموعة السلالية المغولية تمتاز بالعيون المنحرفة الضيقة ، وتختلف درجة انحراف العين بين سلالة وأخرى داخل هذه المجموعة .

أما عيون المجموعة السلالية القوقازية فهى عادية فى شكلها ، ولكن السلالة الشمالية تمتاز بالعيون الضيقة المستقيمة . أما عيون المجموعة السلالية الزنجية فهى واسعة .

٤ ـ شكل الرأس :

من الصفات الهامة التى تميز السلالات بعضها عن بعض ، الشكل العام للرأس فإذا نظرت لها من أعلى ، تجدها إما أقرب إلى العرض ، وإما أقرب إلى الاستطالة . ويعبر عنها عند الانثروبولوجيين بالنسبة الرأسية ، وهى النسبة المئوية بين عرض الرأس (أو الجمجمة) وبين طولها ، وإذا كانت هذه النسبة أقل من ٧٥ كان الرأس طويلا ، وإذا كانت بين ٧٥ ـ ٨٠ كان الرأس متوسطا . وإذا كانت أكثر من ٨٠ فهى عريضة .

والنسبة الرأسية مفيدة ، لأنها لا تتغير بعد ولادة الشخص ، وهى صفة موروثة ، كما أنها لا تندثر بموت صاحبها ، كلون البشرة أو الشعر وما إليها ، ولكنها تبقى فى جماجم الموتى أيضا ، ولذلك فهى مفيدة جدا ـ إلى جانب طول القامة ـ فى التعرف على سلالات الحفريات البشرية ، أو الأجيال السابقة التى كانت تسكن بقعة ما من الأرض .

إلى جانب هذا ، فان ارتفاع الرأس صفة لها أهميتها ، فبعض الرؤوس مفلطحة من أعلى ، وبعضها مرتفع ، وتؤخذ نسبة ارتفاع الرأس بقياس الخط العمودى الذى يصل أعلى الرأس بقاعدة خط آخر يصل بين الحاجب ومؤخرة الرأس ، وقياس القاعدة الأخيرة ، وأخذ النسبة المئوية بينهما . وتعتبر الرأس أو الجمجمة مفلطحة إذا كانت هذه النسبة أقل من ٧٠ فى الجمجمة ، وأقل من ٥٨ فى الرأس ، وتعتبر الرأس عادية إذا كانت بين ٧٠ ـ ٧٥ فى الجمجمة ، ٥٨ ـ ٦٣ فى الرأس ، وتعتبر مرتفعة إذا كانت أكثر من ٦٣ فى الجمجمة وأكثر من ٧٥ فى الرأس .

٥ ـ شكل الوجه :

هناك أيضا نسبة وجهيه ، وهى النسبة المئوية بين طول الوجه وعرضه ، وأهم ما يؤثر فى شكل الوجه هى عظام الوجنتين ، فاذا كانت عظمتا الوجنتين ، متباعدتين كان الوجه عريضا ، وإذا كانتا متقاربتين كان مستطيلا .

ولكن هذه النسبة ليست كافية لاعطاء فكرة عن شكل الوجه ، بحيث يمكن استخدامها فى تصنيف السلالات . فهناك بعض الوجوه طويل ، وبعضها قصير بغض النظر عن النسبة الوجهيه كما أن هناك علاقة كبيرة بين شكل الوجه وشكل الرأس . فهناك

عادة انسجام بين الرأس الطويل والوجه الطويل ، وبين الرأس العريض والوجه العريض .

إلى جانب النسبة الوجهية ، هناك أشياء كثيرة تؤثر فى شكل الوجه ، مثل بروز عظام الوجنات التى تمتاز بها المغول ، ومثل بروز الفك أو عدم بروزه ، ويمتاز بالصفة الأولى السلالات البدائية ، مثل الاستراليين الأصليين ، كما يمتاز بها الزنوج ومن اختلط بهم من سلالات ، وتتصف السلالات البدائية أيضا بتقهقر الجبهة .

٦ - شكل الأنف :

تختلف السلالات البشرية فى شكل الأنف ، الذى يعتبر احدى المميزات الجسمانية فى تصنيف السلالات ، وهو يتراوح بين الأنف الأفطس إلى الأنف المتوسط ، إلى الأنف الأقنى الرفيع ، وهناك آلة خاصة لقياس طول الأنف (من أول الفجوة التى تقع بين الحاجبين إلى أسفل الأنف ، ومن أحد أطراف قاعدة الأنف إلى القاعدة الأخرى) وأخذ النسبة الأنفية ، وهى النسبة المئوية بين الطولين . ويمكن أخذ النسبة الأنفية للاحياء والجماجم معا ، ولهذا كانت هذه الصفة ذات أهمية كبيرة فى التعرف إلى السلالات البشرية القديمة وإلى سلالات الجماجم .

وربما كان للاختيار الطبيعى صلة بين شكل الأنف والحالة المناخية بالنسبة للموطن الأصلى للسلالة أى حيث تم تكوينها . وهذه الملاحظة سليمة فيما يتعلق بسلالات - المجموعة الزنجية ، وبالسلالات الشمالية ، ولكننا نجد - فى التوزيع الحالى للسلالات - أن سكان شمال السودان والهند الموسمية وجزر الهند الشرقية لا يمتازون بالأنف الأفطس رغم شدة حرارة تلك الاقاليم ، ورغم أن المعروف أن السلالة التى نشأت فى أقليم حار ، تحتاج للأنف

العريض ذى المنخارين الواسعين ، لكى تستقبل أكبر كمية من الهواء ، ولما كان هذا الهواء ساخنا فى العادة فدخوله مباشرة إلى الصدر لا يوقع الضرر بأفراد هذه السلالة ، ومن ثم كان الأنف قصيرا جدا أو أفطسا .

ولكن من ناحية أخرى ـ نستطيع أن نقول أن المجموعات البشرية الكبرى (القوقازية والزنجية والمغولية) قد نشأت فى الأصل فى بيئات منعزلة بعضها عن البعض الآخر حيث اكتسبت مميزاتها الجسمية ، تحت ظروف مناخية وجغرافية معينة ، ثم حدث بعد ذلك اتصال السلالات بعضها بالبعض الآخر وهجراتها واختلاطها فنشأ ما يسمى بالسلالات الفرعية أو الصغرى ، وهذه السلالات الفرعية تجمع بين صفات السلالات الكبرى التى نتجت عنها فى بيئاتها الجديدة ، مثل سكان شرق أفريقيا والسودان الذين يجمعون بين صفات المجموعة القوقازية وبعض الصفات الزنجية ، فكانوا سود البشرة ولكن أنوفهم ليست فطساء .

ليست النسبة الأنفية هى كل ما يميز الأنوف بعضها عن بعض ، فقد يكون الأنف متوسطا أو رفيعا ، ولكنه صغير ، لا بروز فيه ، مثل أنف المغول ، وقد يكون الأنف رفيعا ، ولكنه مستقيم كالأنف الرومانى ، أو معقوف كالأنف الأرمنى ، أو مقعر أو مدبب مثل الأنف النوردى . هذه جميعا صفات فرعية كبيرة تظهر فيما عدا الأنف المغولى الصغير ـ فى سلالات المجموعة القوقازية .

٧ ـ طول القامة :

تتميز طول القامة كصفة مميزة فى تصنيف السلالات . بأنها صفة يمكن قياسها فى الاحياء وفى الهياكل العظمية ، ويقول

توبيتارد أن متوسط طول الانسان ١٦٥ سم واستعمل فى تصنيفه للبشر حسب طول القامة جدولا كالآتى :

القـزم	أقل من ١٤٨ سم
القصـير	١٤٨ ـ ١٥٨ سم
المتوسط القامة	١٥٨ ـ ١٦٨ سم
الطويل القامة	١٦٨ ـ ١٧٢ سم
العمـلاق	أكثر من ١٧٢ سم

ومن المعروف أن بعض السلالات يغلب عليها طول القامة ، وبعضها يغلب عليها قصر القامة ، ولكن يجب أن نلاحظ أن المقاييس الانثروبولوجية تبنى على متوسطات وأن داخل أى مجموعة ، هناك من هو أقل من المعدل فى الطول وهناك من هو أعلى من المعدل .

٨ ـ فصائل الدم :

هذه وسيلة حديثة لمحاولة تصنيف البشر إلى سلالات ، لا يمكن التقليل من أهميتها ، إذا استخدمت بالاضافة إلى الأسس السابقة عندما بدىء فى عمليات نقل الدم ، لوحظ أن الأفراد لا يتفقون فى فصائل الدم ، فنقل دم من شخص إلى آخر قد يؤدى إلى تكوين جلطة دموية فى المريض مما يؤدى إلى وفاته ، ولذلك اتجه البحث إلى تصنيف فصائل الدم حسب ما تمتاز به من عوامل وراثية خاصة بالجلط ، وهذه أطلق عليها أ A ' ب B ' و O ' ب أ B A وقد حاول بعض الانثروبولوجيين تصنيف السلالات البشرية وفقا لتوزيع الصفات الوراثية الخاصة بقابلية التجلط فى الدم ، على أساس أن هذا التوزيع يختلف من مجموعة انسانية إلى أخرى ،

ولكن كلما تعمق الباحثون فى الدراسة ، كلما ظهرت المشكلات والاعتراضات على هذا التوزيع العام .

هذه هى أهم الصفات الجسمية التى تستعمل فى تصنيف البشر . ولقد تقدم علم القياس الانسانى « أنثروبومترى » أثناء القرن الماضى وتعقدت مناهجه ووسائله لكى يحدد بدقة الفوارق فى السمات الجسمية التى أشرنا اليها بين السلالات البشرية ، غير أن الحقيقة الكبرى التى لا يمكن اغفالها هى أن الاختلاط بين السلالات والشعوب قديم قدم الانسان وتكاثره وانتشاره على سطح الأرض ، ومن الصعب أن نجد جماعة تستطيع أن تزعم أنها جميعا من سلالة واحدة . فلا وجود للسلالات النقية ، ولا وجود لشعب تكون من سلالة واحدة .

وقد لاحظ الانثروبولوجيون أن صفة واحدة من الصفات الجسمية التى تتخذ أسسا لتصنيف البشر غير كافية لتصنيفهم إلى مجموعات كبرى أو سلالات ـ لما بين المجموعات من تداخل فى كثير من هذه الصفات نتيجة لاختلاطها فى أزمنة وأماكن مختلفة ، ولذلك لم يكن بد من استخدام عدد من الصفات المقترنة ويحاول الانثروبولوجيون الطبيعيون على أساس ذلك تصنيف البشر إلى مجموعات كبرى ثم إلى سلالات فرعية هذا مع تسليمنا بأن البشر الحاليين جميعا ينتمون إلى نوع واحد ظهر منذ حوالى ٥٠,٠٠٠ ـ ١٠٠,٠٠٠ عام ، وأن الاختلاط سهل ومنتج والتناسل ممكن بين أفراده ، الا أن هذا النوع البشرى أمتاز بتخصص بعض جماعات فى صفات جسمية معينة بحيث يمكن أن يطلق عليها سلالة جغرافية ، أى سلالات تسكن فى أقاليم جغرافية معينة ، فهذا التخصص الخلقى كان نتيجة العزلة الطويلة فى بيئة جغرافية خاصة ، بحيث أبرزت الوراثة الداخلية صفات مشتركة خاصة

لنفس السلالة فى نفس البيئة ، وهذا هو التفسير الوحيد للاختلافات الجسمية الموجودة بين سلالات البشر وإلى جانب دراسة السلالات البشرية والسمات المميزة لها وتصنيفها وانتشارها على سطح الأرض وما إلى ذلك ، شملت الانثروبولوجيا الطبيعية كل من ، أولا ، علم حفريات ما قبل التاريخ ، ثانيا ، علم التطور البشرى .

أولا - علم حفريات ما قبل التاريخ :

وهو العلم الذى يعنى عناية خاصة بجمع وتحليل الآثار والمخلفات البشرية التى يستدل منها على التسلسل التاريخى للاجناس والعائلات البشرية ، وكانت هذه الفترة التاريخية السحيقة لا توجد خلالها وثائق مدونة ومكتوبة ، فانه يعتمد فى سبيل الوصول إلى التحقيق من وجود النوع الانسانى عن طريقين رئيسيين :

(أ) بحث محتويات حفريات ما قبل التاريخ ، وما خلفته من بقايا عظمية متحجرة أو غير متحجرة ، بحيث أن تجميعها يعطى للعالم صورة عن التكوين الجسمى للانسان القديم أو الانسان الحضرى .

(ب) دراسة الأدوات الحجرية التى خلقها الانسان وتصنيفها على أساس دقتها وحاجتها إلى المهارة والدقة ، وقد اتخذ هذا الأساس من بين الأسس التى تحدد تطور التمدين الانسانى وتاريخ الحضارات والثقافات ومجالات انتشارها وانتقالها ومن ثم انتشار الاجناس وهجراتها فى بقاع العالم .

وقد قسم العلماء الآلات الحجرية التى خلفها الانسان القديم إلى ثلاثة أشكال رئيسية : الشكل الأول البدائى ، حاول فيه

الانسان أن يهذب كتلة الصخر ويقطعها بحيث تصبح آلات يستخدمها ، والشكل الثانى يتمثل فى صناعة الشظايا ، والشكل الثالث يتمثل فى صناعة الأسلحة .

ثانيا ـ علم التطور البشرى :

وهذا العلم يعتبر امتدادا طبيعيا لدراسة الحفريات ، فهى تعنى بتتبع التطور الفيزيقى والعقلى والنفسى الذى طرأ على النوع البشرى ابتداء من الأصل الافتراضى للجنس البشرى والنوع الانسانى .

وقد وجه كثير من علماء الانثروبولوجيا الطبيعية مزيد عنايتهم إلى دراسة التطور البشرى ابتداء من تلك المرحلة حتى بلغ النوع الانسانى مرحلته الحديثة بخصائصه المميزة له بصفة عامة والخصائص السلالية والوراثية التى تميز وتصنف سلالاته . واستطاع بعض العلماء من المتخصصين فى دراسة الحفريات إن يصلوا إلى كشف النقاب عن صفات وخصائص عدة أنواع تمثل الانسان القديم المنقرض وقد اصطلح على أطلاق اسم الانسان الحفرى على مثل هذه الأنواع ، بينما أطلق على كل نوع من هذه الأنواع اسم المكان الذى عثر على أجزاء من هيكله العظمى فيه . وهذه الأنواع هى :

١ ـ انسان جاوه ، وقد هثر على مخلفات هذا الشكل الانسانى فى جزيرة جاوه .
٢ ـ انسان الصين أو انسان بكين .
٣ ـ انسان بلتداون نسبة إلى بلتداون فى انجلترا .

٤ ـ انسان هيدلبرغ نسبة إلى هيدلبرغ فى ألمانيا .

٥ ـ انسان نياندرتال نسبة إلى نياندرتال قرب دولسدورف بألمانيا .

٦ ـ انسان جريمالدى وقد وجدت مخلفاته فى كريف فى خليج جنوى بين فرنسا وايطاليا .

٧ ـ انسان كرومونيون وقد عثر على مخلفاته فى كهوف حدود فرنسا وأسبانيا .

٨ ـ انسان روديسيا وقد عثر على مخلفاته فى كهوف روديسيا .

وكل هذه الأنواع قد انقرضت وأن كان علماء الانثروبولوجيا الطبيعية يعتبرونها حلقات فى تاريخ تطور الجنس البشرى .

الفصل الثالث

علم الانسان الثقافى

أن الانسان بطبيعته مزود بمستوى عقلى وذكائى يمكنه من أن يبدع وينشىء ويخلق لنفسه نماذج معيشية ، متغلبا بذلك على ما يعترضه من صعاب فالنماذج المعيشية التى يسير عليها مجتمع من المجتمعات ونماذج التفكير والعادات والتقاليد والفنون والقوانين والأخلاق واللغة والمعتقدات .. كل تلك تكون ثقافة ويعرف هيبل الثقافة بأنها « المجموع الكلى لنماذج السلوك المكتسبة المتكاملة ، التى تميز أعضاء مجتمع من المجتمعات ، والتى بناء على ذلك ـ ليس نتيجة للوراثة الحيوية » .

فالثقافة هى النماذج التى ينشئها المجتمع أو يستعيرها من مجتمع آخر ليستعين بها فى حياته الاجتماعية ، فهى تقوم أولا على العقل والتفكير وتختلف عن الافعال الغريزية التى يرثها الانسان بشكل فطرى ولادى ، فهى كلها وليدة الاختراع الاجتماعى ، وهى تنقل فقط عن طريق الاتصال والاكتساب . فالثقافة ظاهرة انسانية تميز الانسان عن غيره من الحيوانات الأخرى ، وتختلف من جماعة انسانية إلى أخرى ، فهى تتغير من مجتمع لآخر وفى نفس المجتمع من زمن لآخر وفق الحياة الاجتماعية وما يحيط بالمجتمع من عوامل طبيعية واجتماعية .

وتتميز الثقافة بأربع خصائص رئيسية هى :

أولا : أنها اختراع أو اكتشاف انسانى أو بشرى ينشأ عن الحياة الاجتماعية .

ثانيا : أنها تنقل من جيل لآخر على شكل تقاليد وعادات ونظم يتوارثها الناس جيلا بعد آخر ، كما تنقل من وسط اجتماعى إلى وسط اجتماعى آخر عن طريق ما يسمى بالانتشار الثقافى .

ثالثا : أنها قابلة للتعديل والتغيير ، إذ يلجأ كل مجتمع وكل جيل إلى تعديل نماذجه الثقافية وفق ما يحيط به. من عوامل وظروف خاصة تميزه عما سواه من المجتمعات والاجيال الأخرى .

رابعا : أنها تنقل عن طريق الاكتساب والمران أى بالطريق الاجتماعى دون الطريق الحيوى أو البيولوجى . فهى تنقل عن طريق التعلم والتمرين . كما تنقل بالاتصال بين الشعوب بعضها البعض .

عناصر الثقافة :

تتألف ثقافة أى شعب من الشعوب من مجموع النظم الاجتماعية التى تسوده : النظم العائلية ، ونظم القرابة ، والنظم الاقتصادية ، والنظم الدينية ، والسياسية والتربوية ، واللغة السائدة ووسائل التفاهم ، والعادات والتقاليد التى يخضع لها المجتمع ، والفنون بجميع أنواعها والفولكلور أو الفنون الشعبية ، وما وصل اليه المجتمع فى حياته التطبيقية من وسائل فى المآكل والمسكن والملبس والمشرب ، وفى نشاطه الاقتصادى من رعى مثلا أو صيد أو زراعة أو حرف يدوية أو صناعة أو تجارة . وما وصل

اليه من مستوى علمى فى الفروع العلمية المختلفة ، كالطبيعة والكيمياء والميكانيكا والطب والفلك والاحياء .

فالثقافة تشمل كل أوجه النشاط الاجتماعى أو هى مجموع النظم والعادات والتقاليد التى تسود المجتمع . وكل نظام اجتماعى يضم عددا من نماذج أو مركبات ثقافية مترابطة فيما بينها ، أو هى كل النماذج المعيشية التى ترجع إلى الحياة الاجتماعية والتى اكتسبها الأفراد من المجتمع ، ولم يولدوا مزودين بها بشكل غريزى ولادى . وكل نموذج من هذه النماذج يشمل عدداً من السمات الثقافية المترابطة فيما بينها .

فاذا أخذنا النظام العائلى مثلا لذلك ، فهو جزء من ثقافة المجتمع ، ثم أنه يتكون من عدة نماذج ، كنماذج الزواج والحياة العائلية ، وعلاقة الأولاد بالوالدين وعلاقة الوالدين بهما ، وعلاقة الأسرة بالدولة ، وكل نموذج من هذه النماذج يحتوى على عدد كبير جداً من السمات الثقافية التى تمثل فى مجموعها حركة الحياة فى هذا النموذج وديناميانه ، والتى يكون لكل منها وظيفة اجتماعية ويتكامل وظائف السمات الثقافية المختلفة ، تؤدى النماذج الثقافية دورها فى المجتمع ، وبتكامل وظائف النماذج الثقافية ، يؤدى النظام الاجتماعى وظيفته فى المجتمع .

ويطلق بعض العلماء على النموذج الثقافى اسم المركب الثقافى ، بوصفه مركبا من عدة سمات أو عناصر أولية لا تنقسم إلى أقل منها .

فالحروف الهجائية والأصوات من السمات الثقافية للغة ما ، أى من عناصرها الأولى والطربوش والقبعة والجلباب والسروال من السمات الثقافية للملابس السائدة فى مجتمع ما ، فهى من عناصر

هذا النموذج أو من عناصر ظاهرة الزى السائد فى المجتمع .
والفأس والشادوف والساقية من السمات الثقافية لنماذج الزراعة التى تسود المجتمع الريفى .

دراسـة الثقـافة :

فى علم الانسان الثقافى يلجأ العلماء إلى دراسة النماذج المعيشية وأوجه النشاط الاجتماعى التى سبق ذكرها ، وهم فى سبيل ذلك يلجأون إلى تحليل ثقافة أى شعب من الشعوب إلى العناصر الرئيسية التى تتألف منها تلك الثقافة ، وذلك لتسهيل مهمة العلماء فى البحث والدراسة ، شأنهم فى ذلك شأن عالم الكيمياء الذى يلجأ عند دراسة مادة من المواد إلى تحليلها إلى عناصرها الأولى وذلك ليستطيع التوصل بعد ذلك إلى كيفية تفاعل هذه العناصر مع بعضها البعض وكيف وصلت إلى تكوين تلك المادة أو ذلك المركب .

فعالم الانسان عند دراسة ثقافة شعب من الشعوب أو جماعة من الجماعات يلجأ إلى تحليلها إلى سماتها وعناصرها الأولى لمعرفة الأسس التى تقوم عليها . ثم هو يدرس الطريقة التى تترتب بها هذه العناصر والعلاقات المتبادلة بينها ، والتى تسمى « بالتضاريس الثقافية » وأهمية دراسة التضاريس الثقافية ترجع إلى أن سمة ثقافية ما قد توجد فى أكثر من ثقافة ولكن يكون لها فى كل منها معنى خاص أو وظيفة خاصة أو قد تلعب دوراً فى البناء الاجتماعى لمجتمع ما يختلف عن الدور الذى تلعبه فى بناء مجتمع آخر . فالقطع الرمزية التى يلبسها بعض الأفراد فى أى مجتمع ، كقطع الأحجار الكريمة أو الملونة أو أما شاء الله تلعب وظيفة الزينة

الزينة أو التبرك ولكنها فى بعض المجتمعات البدائية تلعب وظيفة هامة فهى توضح انتماء الفرد لقبيلة معينة أو لطبقة معينة ثم هى تحميه من الأرواح الشريرة وتحصنه من الأمراض وأعمال السحر . فاذا كانت لهـا وظيفة جمالية فى بعض المجتمعات ، فان لهـا وظائف سياسية أو دينية أو اقتصادية فى مجتمعات أخرى ، وإذا كان استخدامها اختياريا فى بعض المجتمعات كالمجتمعات الحديثة فهو اجبارى فى المجتمعات البدائية .

والتضاريس الثقافية تدل على ظاهرة أخرى يسميها العلماء باسم التكامل الثقافى . فالنظم الاجتماعية تتكامل مع بعضها البعض داخل الثقافة الواحدة والنماذج والسمات الثقافية تترابط مع بعضها البعض ، بحيث يصعب فهم أى نظام اجتماعى أو أى نموذج أو سمة ثقافية بمعزل عن النظم أو النماذج والسمات الأخرى ولذلك فان دراسة العلاقات المتبادلة والتأثير بين النظم الاجتماعية أو بين النماذج والسمات الثقافية التى تشكل ثقافة ما ، من المهام الأساسية للباحث فى علم الانسان الثقافى حتى يتمكن من فهم تلك الثقافة والمقارنة بينها وبين الثقافات الأخرى .

وتختلف اتجاهات الدارسين للثقافة فى علم الانسان الثقافى ، منهم من يدرس وظائف السمات الثقافية وعلاقاتها بعضها وبعض ، كما يدرس الوظائف التى تؤديها النظم المختلفة داخل الثقافة الواحدة . ومنهم من يدرس أصل الثقافة ، بينما يدرس بعض منهم كيف تنتشر الثقافات أو كيف تمتزج ببعضها البعض أو العوامل التى تؤثر فى تشكيل الثقافات . ولذلك تعددت المدارس فى هذا المجال ، ولعل أهمها ما يلى :

أولا ـ المدرسة الوظيفية أو المذهب الوظيفى Functionalism :

أهتم علماء هذه المدرسة وعلى رأسهم رادكليف براون (١٨٨١ م ـ ١٩٥٥ م)(*) وبرنسلاف مالينوفسكى (١٨٨٤ م ـ ١٩٤٢ م)(**) بدراسة الاجزاء أو العناصر التى تتكون منها الثقافة ومعرفة الدور الذى يقوم به كل جزء منها داخل الاطار الثقافى العام أو بمعنى آخر وظيفة كل سمة ثقافية أو وظيفة كل عنصر من عناصر الثقافة ، فدراسة علماء هذه المدرسة هى إلى حد ما دراسة تشريحية للثقافة أو هى تشبه إلى حد ما دراسة علمى التشريح ووظائف الاعضاء بالنسبة لدراسات الطب البشرى والحيوانى . أن علماء هذه المدرسة يحللون الثقافة المدروسة فى محاولة لمعرفة سماتها أو عناصرها ثم هم يحاولون معرفة الوظائف التى تؤديها كل من هذه السمات فى أطار الثقافة السائدة فى المجتمع . وهذه المدرسة الوظيفية وثيقة الصلة بالانثروبولوجيا الاجتماعية .

---

* راد كليف براون : شغل منصب استاذ كرسى الانثروبولوجيا الإجتماعية بجامعة اكسفورد حتى سنة ١٩٤٨ ، كان يرى ان الثقافة تكون فى مجموعها فى اى شعب ، كائناً حياً ينمو ويتطور ، فكما أن الكائن الحى مكون من خلايا يقوم كل منها بوظيفة معينة ، وعن طريق قيام هذه الخلايا او مجموعها كل بوظيفته يحيا الكائن الحى ويتطور ، كذلك الثقافة كائن حى يتكون من نظم وعادات وتقاليد ونماذج وسمات لكل منها وظيفة تؤديها داخل « الكل » الثقافى الذى يتغير تبعا لهذه الوظائف .

** برنسلاف مالينوفسكى : أستاذ كرسى الأنثروبولوجيا فى جامعة لندن فى الأربعينات كان يؤمن إيمانا عميقا بالدراسات الحقلية وينفر من المناقشات النظرية التى تصطبغ بصبغة فلسفية بحته وقد أثر ماليتوفسكى تأثيراً كبيراً واضحاً فى توجيه الانثروبولوجيا الإجتماعية ناحية الدراسات الحقلية ، وقد تفوق على غيره من علماء عصره فى هذا المجال . له دراسة حقلية فى « التروبرياند » ، وقد مكث بينهم للقيام بها أربعة أعوام (١٩١٤ ـ ١٩١٨) . كما أنه كان اول عالم انثروبولوجى يستخدم فى دراسته لغة الأهالى أنفسهم فى الوقت الذى كانت فيه كل الدراسات الانثروبولوجيه تتم عن طريق الإستعانة بالمترجمين .

لقد تعرضت دراسات علمائها لبعض النقد الذى انصب على نقطتين أساسيتين هما :

١ ـ أن هذه المدرسة لم تهتم لا بالأسس التاريخية للثقافة ولا بالناحية التطورية لهـا .

٢ ـ أن علماء هذه المدرسة لم يهتموا بالتفرقة بين الوظائف الرئيسية والوظائف العرضية للسمات الثقافية أو النماذج الثقافية .

ثانيا ـ المدرسة البئوية Environmentalism :

تذهب هذه المدرسة إلى أن النظم الثقافية والاجتماعية تنشأ وفقا للبيئة الفيزيائية . أى أن المناخ والتضاريس وما تؤدى اليه من غلات ونباتات تشكل الحياة الثقافية والاجتماعية لأفراد المجتمع الذى يعيش فى هذه البيئة . فالبيئة الجغرافية أو الطبيعية فى رأى علماء هذه المدرسة تشكل اجسام أفراد المجتمع وسماتهم الجسمية والاجتماعية وهى التى تحدد شكل مساكنهم وملابسهم وألوان مأ كلهم ومشربهم ، وعاداتهم وتقاليدهم ونظمهم ، كما أن البيئة ألطبيعية هى التى تحدد لكل نظام أو نموذج سمة ثقافية أو اجتماعية أو حتى جسمية وظيفتها .

والواقع أن آراء علماء هذه المدرسة قديمة جداً (وأن لم تدخل تحت مسمى الانثروبولوجيا أو علم الانسان) ، فقد نادى بها كل من كنفشيوس الصينى فى القرن السادس قبل الميلاد ، وأرسطو اليونانى فى القرن الرابع قبل الميلاد ، ثم ابن خلدون العالم الاسلامى فى القرن الرابع عشر الميلادى وفى العصور الحديثة نجد العديد من العلماء يؤيدون وجهة نظر هذه المدرسة ، من أهمهم « منتسكيو » الفرنسى (١٦٨٩ ـ ١٧٥٥) الذى ذكر فى كتابه

« روح القوانين » أن النظم الاجتماعية تنشأ وفقا لمناخ وتضاريس خاصة ، ولتخدم وظائف اجتماعية وبيولوجية أو حيوية تفرضها البيئة الطبيعية .

وينتمى إلى هذه المدرسة معظم علماء الجغرافيا البشرية ، وعلى وجه الخصوص الألمانى « فردريك راتزال » (١٨٤٤ ـ ١٩٠٥) الذى بين أثر موقع المجتمع ومساحته وحدوده الجغرافية على العادات والتقاليد والنظم الاجتماعية التى تنشأ به .

ولقد بالغت هذه المدرسة فى أظهار أثر العوامل المناخية والتضاريسية فى تشكيل الحضارات والثقافات وأهملت أثر اية عوامل أخرى ، مما عرضها للنقد الذى تركز حول النقاط التالية :

(أ) على الرغم من أهمية أثر عوامل البيئة الطبيعية على الحياة الثقافية والاجتماعية الا أنه من الضرورى أن نضع فى اعتبارنا أن الانسان يغير فى بيئته الجغرافية تغييرات جذرية . والاستخدام الفنى لموارد الطبيعة أهم للمجتمع من وجود هذه الموارد فى حد ذاته .

(ب) أن المجتمعات البشرية المنظمة التى تقدم فيها الفن التطبيقى هى التى تغير الطبيعة لمصلحتها ، وتخضع الكثير من الظواهر الطبيعية لسيطرتها .

(جـ) كثيراً ما نجد أن البناء الاجتماعى هو الذى يفرض نفسه على الوسط الفيزيائى ويحدده ويشكله .

المدارس التطورية أو المذهب التطورى Evolutionism :

منذ القرن الماضى والعلماء يتساءلون عن سر تشابه بعض الثقافات فى بعض السمات واختلافها فى بعضها الآخر ، ثم كيف ولماذا تتغير ثقافة شعب من الشعوب من فترة لأخرى . وفى أواخر

القرن التاسع عشر نشأت المدرسة التطورية متأثرة بنظريات دارون وغيره من أصحاب مذهب التطور البيولوجى أو الحيوى . ولقد وضع التطوريون مبدأ هاماً وأساسيا لفكرتهم تتلخص فى أن جميع المجتمعات تتجه دائما نحو الرقى فى تغيرها ، وأن أى نظام اجتماعى فى مجتمع ما يمر فى تطوره بنفس المراحل التطورية التى يمر بها فى مجتمع آخر فاذا أخذنا النظام العائلى مثلا على ذلك فانه يمر فى تطوره فى جميع المجتمعات بنفس المراحل التطورية من مرحلة تطورية إلى مرحلة أخرى .

وقد حاول أصحاب نظرية التطور تطبيق نظريتهم على كل النظم السياسية والدينية والاقتصادية والعائلية واللغوية والتربوية ، والفنون .. وافترضوا أن جميع المجتمعات مهما كانت منفصلة عن بعضها البعض تمر بنفس الخطوط التطورية أو الأشكال التطورية ، أى بخطوط متوازية من التطور ، ولذلك سميت نظريتهم باسم « نظرية المتوازيات » .

ويعتبر ماكيلينان J. F. McLennan (١٨٢٧ ـ ١٨٨١) من أعلام المدرسة التطورية المؤمنين بالقوانين العامة للتطور الاجتماعى ـ وهو محام من اسكتلنده ـ وقد وضع ماكيلينان نموذجا للمراحل التى مر بها المجتمع البشرى ، فهو يرى أنه لابد لنا أن نفترض أن الانسان الأول كان يحيا حياة اباحية طليقة ، على الرغم من أن كل الشواهد تظهره على أنه كان يعيش فى أول الأمر ـ وفى كل المجتمعات ـ فى جماعات طوطمية صغيرة تقوم على أساس القرابة الأموية وهى مستقلة سياسيا عن بعضها البعض ، ويسودها نظام الزواج الخارجى (الاكسوجامى) أو الزواج من خارج الجماعة التى ينتمى اليها الفرد . ثم انتقلت هذه المجتمعات الأولى إلى مرحلة تالية هى مرحلة تعدد الأزواج بالنسبة للمرأة

الواحدة (البوليانِدرية) وهو يتخذ من عادة تزوج الرجل من أرملة أخيه وهو ما يعرف بالزواج الليثيراتى ، دليلا على ذلك ومنها إلى مرحلة نظام الانتساب إلى الأب بعد أن كان الانتساب إلى الأم . وظهر بعد ذلك تدريجيا نظام الأسرة المألوف لدينا .

وقد تعرضت المدرسة التطورية لكثير من النقد فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين على أساس أن دراساتهم كانت فلسفة اجتماعية أكثر منها علم انسان ، وأنهم وضعوا نظريتهم فى تطور المجتمعات وراحوا يطبقونها على كل المجتمعات مفترضين أن كل نظام لابد وأن يمر فى صور ومراحل حددوها ورسموا تفاصيلها من خلال دراساتهم النظرية المكتبية ، واشتقوا معلوماتهم من كتابات الرحالة والمبشرون وموظفو المستعمرات ، دون دراسة حقلية يعرفون منها حقائق الواقع على الطبيعة ، ولذلك أتت نظريتهم بعيدة عن الواقع وكانت كثيرا من الصور التى رسموها لمراحل التطور ، من نسج خيالهم ولم تحدث فى الواقع بأية حال من الأحوال ، ومعظم معلوماتهم كانت ظنية غير يقينية .

وفى منتصف القرن العشرين ظهرت مدرسة تطورية محدثة Neo - evolutionism وهى مدرسة أمريكية بحته ، عملت على تلافى أخطاء المدرسة التطورية الكلاسيكية . وتنقسم آراء هذه المدرسة إلى اتجاهين كبيرين : أولهما الاتجاه التطورى المتعدد الخطوط وثانيهما الاتجاه التطورى العام .

أما الاتجاه الأول فيرى أنه من المستحيل تعيين مراحل تطورية عامة تنطبق على جميع الثقافات لأن الثقافات تختلف فيما بينها اختلافا كبيرا لايسمح بمثل هذا الافتراض . وعلى ذلك فان هذا الاتجاه لا يحدد مبادىء محددة للتطور ، ولا مراحل معينة

متتالية يسير وفقا لها تطور النظم الاجتماعية فى جميع المجتمعات . أن هذا الاتجاه يختار نماذج ثقافية متشابهة ، ويدرس كيف تطورت هذه النماذج ، وإذا كان تطورها متشابها ، فانه يبحث فيما إذا كانت أسباب أو عوامل هذا التطور هى أيضا متشابهة ، ولهذا أدت إلى طور تطورية متشابهة .

أما الاتجاه الثانى ـ الاتجاه التطورى العام ـ فهو لا يهتم بدراسة النماذج الثقافية المتشابهة ، وأنما يهتم بدراسة الاتجاه العام للثقافة فى انتقال المجتمعات البشرية من العصر الحجرى القديم إلى العصر الحجرى الحديث إلى عصور المعادن (البرنز والنحاس والحديد) . ويرى أصحاب هذا الاتجاه أن كل ثقافة لا تتطور فى تفصيلاتها وجزئياتها كالأخرى ، ولكن هناك اتجاها عاما للتطور ، بمعنى أن الثقافات فى كل عصر ثقافى تسير فى نفس التيار العام .

وقد تعرضت آراء المدرسة التطورية الحديثة أيضا للنقد على أساس أن علماءها خلطوا ما بين التطور الثقافى والتغير الاجتماعى فى مجتمع من المجنمعات واعتبروا الشيئين شيئا واحداً مع أن كلا منهما يختلف عن الآخر ، إذ أن التطور الثقافى يختص بالثقافة عامة فى المجتمعات المختلفة فبينما يعنى التغير الاجتماعى لمجتمع ما أن ذلك المجتمع ليس الا صورة واحدة من صور لا حصر لها قد يحتوى عليها التطور الثقافى .

مدارس الانتشار الثقافى Culture Diffusionism :

نشأت مدارس الانتشار الثقافى كرد فعل عنيف ضد المدارس التطورية ومبالغاتها والانتشار الثقافى يعنى انتقال نموذج أو نظام ثقافى من مجتمع لآخر ، وفى هذه الحالة أما أن تنتقل السمات

الثقافية أو النماذج الثقافية كما هى وأما ان تخضع لبعض التغير والتطوير فى المجتمع الذى تنتقل اليه .

وتتوقف سرعة الانتشار الثقافى بين المجتمعات على عدة عوامل منها :

(أ) طبيعة النظم التى تنتقل سماتها الثقافية من مجتمع لآخر ، فبعض النظم يسهل انتشارها بين المجتمعات مثل اللغة ، بينما يصعب انتشار نظم أخرى كالدين مثلا .

(ب) حجم المجتمع ومساحته وصلاته بالمجتمعات الأخرى ، صلات طبيعية كالجوار أو صلات اقتصادية .

(جـ) قد يكون الانتشار الثقافى مقصودا متعمدا كنشر ثقافة المجتمع الغالب فى الشعب المغلوب أو المحتل ، وقد يتم الانتشار بطريق الصدفة عن طريق تأثر المجتمع تأثرا حراً بمجتمع آخر سواء كان هذا التأثر ناتجا عن صلات مباشرة بين المجتمعين كالتجاور أو الهجرات وانتقال أفراد أو جماعات بين المجتمعين اللذين يتم بينهما الانتشار ، أو غير مباشرة كأن يطلع أفراد المجتمع على ثقافة شعب يتأثرون به عن طريق الكتب والمؤلفات كالصحف والمجلات ووسائل النشر المختلفة المقروءة والمسموعة والمرئية .

(د) قد توجد حواجز تعوق عملية الانتشار الثقافى وتجعل عملية وصول السمات والنماذج الثقافية إلى المجتمع صعبة منها حواجز طبيعية كعزلة المجتمع فى الصحراء أو فى الجبال ، ومنها حواجز سياسية أو اجتماعية .

وعلى أية حال ففى كل ثقافة هناك عناصر أصلية ، ابتدعها المجتمع نفسه عن طريق الاكتشاف والاختراع والتجديد ، وهناك عناصر انتقلت اليها من ثقافة أخرى أو من مجتمع آخر . ويؤدى هذا بطبيعة الحال إلى وجود تشابه فى بعض عناصر الثقافة بين المجتمعات المختلفة . وهنا يكون من الضرورى أن يحتاط الباحث عند دراسة التشابه بين نموذجين ثقافيين متشابهين فى مجتمعين مختلفين ، فقد يكون أساس التشابه بينهما الانتشار الثقافى أى انتقال النموذج أو بعض سماته من مجتمع إلى آخر ، وقد يرجع هذا التشابه إلى أن كلا من المجتمعين قد وصل إلى ابتداء النموذج المتشابه ـ وتسمى هذه الحالة بالمتوازيات الثقافية ، أو أن كلا منهما من البداية كان لديه نموذج مختلف عن نموذج المجتمع الآخر ، ولكن بسبب وحدة العوامل النفسية والبيولوجية الانسانية ، أخذ يحور فى النموذج ويطور فيه حتى انتهى المجتمعان إلى شكل واحد متشابه فيما بينهما ، وهذا هو ما يسمى باسم التلاقى الثقافى .

ومن مدارس الانتشار الثقافى انبثقت مدرسة أهتمت بدراسة تاريخ الثقافات وصلاتها بعضها ببعض ، كما اشتهرت بمنهجها الدقيق فى تحليل الثقافات وتسمى مدرسة « المهاد الثقافية » ، أو المدرسة التاريخية الثقافية ، وقد كانت مدرسة المهاد بمثابة رد فعل ضد النظريات شأنها فى ذلك شأن مدارس الانتشار الثقافى ـ وكانت ترى أن الثقافات السائدة الآن قد نتجت عن انتشار مجموعات ثقافية أصلية ، نشأ كل منها فى زمن تاريخى معين وفى منطقة معينة من العالم (ولذلك سموها المهاد الثقافية) ، وكل ثقافة يستطيع علماء الثقافات بعد دراستها أن يصنفوها وفق صلتها بالتيارات التاريخية للانتشار الثقافى .

وقد افترضت هذه المدرسة صوراً من النماذج الثقافية ، لم تذكر دليلا واحداً مؤكداً على أنها قد وجدت ، كما أنها فى بعض الاحيان كانت تفترض وجود تشابه بين بعض سمات ثقافية مع أنها أبعد ما تكون عن التشابه ، ومن ناحية أخرى فانها لم تهتم بدراسة الوظيفة التى يقوم بها النمط الثقافى فى الثقافات المختلفة ولم تبحث فى مدى أهمية الدور الذى يلعبه هذا النمط فى المجتمعات أو فى الثقافات المختلفة ، مع أن دراسة هذه النقاط لها أهمية كبرى فى تحديد التشابه أو الاختلاف بين نموذجين متشابهين ، واعتبرت هذه النقاط سالفة الذكر نقاط ضعف فيما وصل اليه علماء هذه المدرسة من آراء ، مما عرضها لكثير من النقد وأن كان ذلك النقد قد ساهم فى تعديل مسارها .

وعلى أية حال فقد تطورت مدارس الأنثروبولوجيا الثقافية شأنها فى ذلك شأن بقية فروع الأنثروبولوجيا لاماطة اللثام عن الجوانب المختلفة لحياة الانسان فى المجتمعات المختلفة وكشف ذلك الغموض الذى يحيط بالثقافات المختلفة فى نشأتها وتطورها وتنوعها .

الفصل الرابع
علم الانسان الاجتماعى
الانثروبولوجيا الاجتماعية

تعتبر الانثروبولوجيا الاجتماعية فرعا من فروع الانثروبولوجيا العامة التى تدرس الانسان من عدة نواحى مختلفة ، بل هى أكثر فروع الانثروبولوجيا ثراءا وتنوعا وشمولا . وقد ارتبطت الانثروبولوجيا الاجتماعية بالانثروبولوجيا الثقافية ارتباطا وثيقا وخاصة فى الولايات المتحدة إلى أن انفصلت عنها بعدما تبين من أن دراسة مشكلات الثقافة ومسائلها تتطلب صياغة فى حدود التاريخ وعلم النفس ، بينما تصاغ المسائل التى تتعلق بالمجتمع فى حدود واصطلاحات علم الاجتماع ـ وكذلك الحال بالنسبة للانثروبولوجيا الاجتماعية فى دراستها للنظم والأبنية الاجتماعية . وكان ما يسميه الانجليز بالانثروبولوجيا الاجتماعية ، كان يعرف فى أوروبا باسم الانثروبولوجيا بل أنه حتى فى انجلترا ذاتها لم يستخدم تعبير الانثروبولوجيا الاجتماعية الا فى عهد حديث ، فلقد كان الموضوع يدرس تحت اسم « الانثروبولوجيا » أو الاثنولوجيا ، منذ عام ١٨٨٤ فى اكسفورد ، ومنذ عام ١٩٠٠ فى كمبردج ومنذ ١٩٠٨ فى جامعة لندن . وكان أول كرسى جامعى حمل اسم « الانثروبولوجيا الاجتماعية » فى جامعة ليفربول سنة ١٩٠٨ ، ثم ما لبث الموضوع أن اعترف به على نطاق أوسع بعد ذلك حتى أصبحت الانثروبولوجيا الاجتماعية تدرس الآن تحت هذا الاسم فى عدد كبير

من الجامعات الانجليزية والأمريكية والمصرية وغيرها . ومعنى هذا أن الانثروبولوجيا الاجتماعية والاثنولوجيا كانا يعتبران فى نظر علماء القرن التاسع عشر علما واحدا أو دراسة واحدة ، بينما يعتبرها العلماء المحدثون علمين متميزين احدهما عن الآخر .

وتهدف الانثروبولوجيا الاجتماعية إلى دراسة السلوك الاجتماعى الذى يتخذ فى العادة شكل نظم اجتماعية كالعائلة ونسق القرابة والتنظيم السياسى والنظام الدينى وغيرها ، كما تدرس العلاقة بين هذه النظم سواء فى المجتمعات المعاصرة أو فى المجتمعات البدائية ، وعلى الرغم من أن الانثروبولوجيا الاجتماعية تهتم بدراسة المجتمعات البدائية وغير البدائية ، فالواقع انها تركز دراساتها الحقلية على المجتمعات البدائية ، وربما يرجع ذلك إلى أن هذه المجتمعات تمثل فى نظر الانثروبولوجيين ـ كما كانت تمثل فى نظر فلاسفة القرن الثامن عشر ـ الحالة الطبيعية التى يظن أن الانسان كان يعيش فيها قبل أن يظهر نظام الحكومة المدنية . كذلك اهتم بها علماء الانثروبولوجيا فى القرن التاسع عشر لاعتقادهم انهم واجدون فيها دلائل وشواهد تساعدهم فى بحثهم عن أصول النظم الاجتماعية ـ وكان ظهور نظرية التطور على يد داروين قد أثر فى توجيه الدراسات الانثروبولوجية ، بحيث اهتم الانثروبولوجيون اهتماما خاصا بالبحث عن أصول النظم الاجتماعية ـ ثم اهتم بها علماء الانثروبولوجيا بعد ذلك على زعم انها تعرض النظم فى أبسط صورها ، وأن المنهج السليم يقتضى التقدم والانتقال من دراسة النظم الأكثر بساطة الى النظم الأكثر تعقدا حتى يتسنى للباحث أن يستعين فى دراستها بما تعلمه من الدراسات السابقة .

ولقد ازدادت قيمة هذا السبب الأخير من أسباب الاهتمام بالمجتمعات البدائية بعد ظهور ما يعرف الآن باسم « الانثروبولوجيا

الوظيفية » ، بعد أن ساد الاعتقاد بأن مهمة الانثروبولوجى الاجتماعى هى دراسة النظم الاجتماعية كأجزاء متعاونة متساندة فى النسق الاجتماعى ، مما أدى إلى الاعتقاد بأن من الخير دراسة المجتمعات التى تمتاز بدرجة عالية من بساطة البناء واتساق الثقافة بحيث يمكن ملاحظتها مباشرة ككل متمايز ، وذلك قبل أن يقدم الباحث على دراسة المجتمعات المتحضرة المعقدة التى يصعب دراستها بهذه الطريقة . كذلك دلت التجربة على أن من الأسهل القيام بالملاحظة فى الشعوب التى تنتمى إلى ثقافات أخرى مغايرة ، لأن الاختلاف فى نهج الحياة يجذب الانتباه إليه فى الحال ، كما قد يساعد فى الوصول إلى تأويلات موضوعية ، كما أن دراسة المجتمعات البدائية المتنوعة التى قد تتشابه مع بعضها البعض فى بعض جوانب الحياة ، بينما تختلف عن بعضها البعض فى جوانب أخرى متعددة ، تتيح الفرص لاجراء الدراسات المقارنة للنظم ، وتسهم مساهمة فعالة فى فهم طبيعة المجتمع الانسانى ، وتشبع فضول الباحثين لمعرفة طريق الحياة ونوع القيم والمعتقدات السائدة عند هذه الشعوب التى تعيش وتحيا من غير أن يكون لديها شىء مما يعتبر فى الوقت الحاضر ، أقل مقتضيات الحياة وضروراتها .

وعلى الرغم من أن الانثروبولوجيين الاجتماعيين يوجهون معظم اهتمامهم إلى المجتمعات البدائية ، فإن ذلك لا يعنى أبدا أن جهودهم وقف على تلك المجتمعات وحدها . ففى أمريكا ـ حيث تدرس الانثروبولوجيا الاجتماعية فى الجامعات على نطاق واسع ـ تمت بالفعل عدة دراسات هامة على مجتمعات أكثر تقدما من تلك المجتمعات التى تعرف بأنها مجتمعات بدائية ، وذلك فى ايرلنده واليابان والصين والهند والمكسيك وكندا ، بل وفى الولايات المتحدة

ذاتها ، وقام بهذه الدراسات انثروبولوجيون أمريكيون أو ممن تعلموا ودربوا فى أمريكا .

أما فى بريطانيا فقد كان عدد المتخصصين فى الانثروبولوجيا الاجتماعية أقل منهم فى الولايات المتحدة ، ولذلك قام بالدراسات الانثروبولوجية الاجتماعية مجموعة من غير المتخصصين منهم عدد من المحامين منهم هنرى مين وماكلينا وعدد آخر من الاقتصاديين أو الاداريين - ثم لحق بهم فيما بعد طلبة الدراسات العليا فى بعض الجامعات فى أقسام الانثروبولوجيا التى أنشئت بها . ومن ناحية أخرى كانت المستعمرات البريطانية تضم عددا كبيرا من الشعوب البدائية ، وشجعت الدولة الاتجاه الى دراسة هذه الشعوب دراسة انثروبولوجية اجتماعية للكشف عن قيمتها ومعتقداتها وعاداتها وطرقها فى المعيشة مما يسهل حكمها والسيطرة عليها ، فأجريت العديد من البحوث الانثروبولوجية الاجتماعية لدراسة كثير من الجماعات التى تعيش فى الهند وجزر الهند الغربية وجنوب ووسط وشرق وغرب أفريقيا ، أو فى تركيا وأسبانيا ، ولدراسة البدو العرب فى شمال أفريقيا .

كذلك كانت هناك حركة قوية لدراسة المجتمعات التاريخية من زاوية انثروبولوجية ، وكانت المصادر المكتوبة تحل فيها محل الملاحظة المباشرة ، وقد قام بعض علماء الانثروبولوجيا أنفسهم ببعض هذه الدراسات ، وكانوا يقارنون بين المجتمعات المختلفة على أساس البيانات التى يجمعونها من خلال دراسات تاريخية أو إثنوجرافية سابقة ومن هذه الدراسات مؤلفات سير جيمس فريزر عن العبرانيين القدماء وعن بعض مظاهر الثقافة الرومانية - ولكن هذه الحركة أخذت تضعف واتجه معظم الانثروبولوجيين الاجتماعيين إلى الاهتمام بالدراسات الحقلية التى تعنى فى نظرهم

جمع المعلومات الاثنوجرافية بأنفسهم من خلال معايشتهم للمجتمعات المدروسة ، ثم تحليل هذه المعلومات وربطها بعضها ببعض .

ومن الممكن القول بأن الانثروبولوجيا الاجتماعية ـ من الناحية النظرية على الأقل ـ تدرس كل المجتمعات الانسانية لا المجتمعات البدائية فقط ، وأن كانت من الناحية العملية توجه معظم جهودها إلى النظم الاجتماعية عند الشعوب البدائية أو الشعوب الأكثر بساطة . ومن ناحية أخرى فإن عالم الانثروبولوجيا حين يحاول تأويل ملاحظاته عن المجتمعات البدائية فانه يقارنها دائما ـ ولو بشكل ضمنى ـ بما يجده فى المجتمع الذى ينتمى هو إليه .

وعلى ذلك ، فإنه يمكن اعتبار الانثروبولوجيا الاجتماعية فرعا من الدراسات الاجتماعية ، يكرس معظم اهتمامه للمجتمعات البدائية . فحين يتكلم الناس عن علم الاجتماع فانهم يعنون على العموم دراسة مشكلات أو مسائل معينة فى المجتمعات المتحضرة . ولو أخذنا الكلمة بهذا المعنى لأصبح الفارق بين الانثروبولوجيا والاجتماع فارقا فى مجال الدراسة فقط . ولكن توجد إلى جانب ذلك اختلافات أخرى هامة فى منهج الدراسة ، فالانثروبولوجى الاجتماعى يدرس المجتمعات البدائية دراسة مباشرة تفصيلية بأن يعيش فيها لعدة شهور أو سنين ، بينما يعتمد البحث الاجتماعى فى الأغلب على البيانات الاحصائية أو على الوثائق . كذلك يدرس الانثروبولوجى الاجتماعى المجتمع ككل ، أى أنه يدرس البيئة الاجتماعية العامة ، فيدرس النظم الاقتصادية والقانونية والسياسية ، كما يدرس العائلة ونظام القرابة والدين والتكنولوجيا والفن وغير ذلك على انها أجزاء فى نسق اجتماعى عام . أما عالم

الاجتماع فدراسته تكون متخصصة إلى حد كبير ، بمعنى أنه يدرس بعض مسائل أو مشكلات منفصلة قائمة بذاتها كالطلاق والجريمة والجنون والاضطرابات العمالية والبواعث فى الصناعة(*) . وكذلك يمتزج علم الاجتماع إمتزاجا كبيرا بالفلسفة الاجتماعية من ناحية وبالتخطيط الاجتماعى من الناحية الأخرى ، وانما يحاول أن يحدد لهذه النظم الطريقة التى ينبغى أن تعمل بها ، كما يعمل على تغيير هذه النظم ذاتها بينما ينفر الانثروبولوجى الاجتماعى فى الأغلب من هذه الاعتبارات . وإذا كان المعنى الأوسع لعلم الاجتماع يعتبره مجموعة من المعارف النظرية العامة عن المجتمعات الانسانية فالواقع أن علاقة هذه المعرفة النظرية بالحياة الاجتماعية البدائية هى ما يؤلف موضوع الانثروبولوجيا الاجتماعية . وإذا كان علماء الاجتماع يدرسون النظم والظواهر الاجتماعية فى ترابطها وتأثيراتها المتبادلة وعلاقاتها المستمرة التى تعتبر كلها عناصر أو أجزاء فى التركيب الاجتماعى أو البناء الاجتماعى للمجتمعات الانسانية ، فإن علماء الانثروبولوجيا الاجتماعية يدرسون المسائل التى يتناولونها ـ سواء كانت هذه المسائل هى نظام الرياسة أو الدين أو المميزات السلالية أو المهر أو الرق أو ملكية الأرض أو مكانة المرأة أو الجزاءات الاجتماعية أو المركز الاجتماعى أو الزواج أو القرابة أو ما إليها ـ ليس على انها نظم مستقلة قائمة بذاتها ، بل على انها أجزاء فى أبنية اجتماعية ، يبحثونها فى علاقاتها بتلك الأبنية .

* هذه الفوارق تقوم بين الانثروبولوجيا الإجتماعية وعلم الإجتماع كما يفهم فى إنجلترا وامريكا ، بينما نجد أن هناك تشابها كبير بين الانثروبولوجيا الإجتماعية وعلم الإجتماع الفرنسى ، والفرق الوحيد بينهما ينحصر فى طريقة دراسة المجتمع حيث يزيد إهتمام الانثروبولوجيا بالدراسات الحقلية عن طريق الملاحظة المباشرة ، بينما يهتم علم الإجتماع الفرنسى بالدراسة النظرية التى تصطبغ بصبغة فلسفية .

وهكذا نجد أن دراسة البناء الاجتماعى يعتبر مدخلا لدراسة المجتمع سواء بالنسبة لعلم الاجتماع أو بالنسبة للانثروبولوجيا الاجتماعية . وعلى الرغم من اختلاف توجهات كل من علماء الاجتماع وعلماء الانثروبولوجيا الاجتماعية فى دراساتهم لبناء المجتمع ، إلا أن مفهوم البناء الاجتماعى ذاته لا يختلف كثيرا فى نظر بعضهم عن البعض الآخر .

وقد أعطى « ايفانز بريتشارد » فكرة أولية عما تعنيه كلمة « بناء » على الرغم من أنه هو نفسه قد لاحظ أنه لا يمكن تعريف مثل هذه المفهومات الأساسية تعريفا دقيقا . قال ايفانز بريتشارد :

« من الواضح أنه لابد من وجود درجة معينة من الاطراد والاتساق فى الحياة الاجتماعية وتوفر نوع ما من التنسيق فى المجتمع ، والا استحال على أعضائه العيش معا . فالناس لا يستطيعون فى الواقع الانصراف إلى شئونهم إلا لأنهم يعرفون نوع السلوك الذى يرتقبه الآخرون منهم ، وكذلك نوع التصرفات التى يتوقعونها هم أنفسهم من الآخرين فى مختلف مواقف الحياة الاجتماعية ، كما أنهم ينظمون نشاطهم تبعا لقواعد مرسومة وحسب قيم معينة متعارف عليها . فهم يستطيعون التنبؤ والتكهن بالأحداث وبذلك يمكنهم ترتيب حياتهم بما يتفق ويتماشى مع حياة الآخرين . ولكل مجتمع صورة أو نمط معين يسمح لنا بأن نتكلم عنه على أنه نسق أو بناء يعيش فيه أفراده ويخضعون لمستلزماته وقواعده واستخدام كلمة « بناء » بهذا المعنى يتضمن وجود نوع من التماسك والتوافق بين أجزائه ـ على أى حال إلى الحد الذى يمكن معه تجنب التناقض الصارخ أو الصراع المكشوف وأنه يتمتع بدرجة من الديمومة والبقاء أكبر مما تحظى به معظم الأشياء العابرة السريعة فى الحياة الانسانية . وقد لا يفطن أفراد المجتمع

نفسه إلى أن لمجتمعهم بناءا متميزا . أو قد يكون لديهم شعور ضعيف مبهم بذلك البناء . أما الانثروبولوجى الاجتماعى فمهمته هى الكشف عن هذا البناء .

وينطوى البناء الاجتماعى الكلى العام لأى مجتمع على عدد من الأبنية أو الانساق الثانوية الداخلة فى تكوينه ، وبذلك يمكن أن نتكلم عن النسق القرابى أو النسق الاقتصادى أو النسق الدينى أو النسق السياسى فى هذا البناء الكلى .

ويتخذ السلوك الاجتماعى داخل نطاق هذا النسق شكل النظم الاجتماعية كالزواج والعائلة والأسواق والرياسة وما إليها . وحين نتكلم عن وظائف هذه النظم فاننا نقصد الدور الذى تؤديه فى صيانة البناء والمحافظة عليه » .

نسق القرابة والزواج والأسرة

نسق القرابة :

يحتل موضوع القرابة وما يتصل به من مشكلات تتعلق بالزواج والعائلة مركزا رئيسيا فى دراسات الانثروبولوجيا الاجتماعية التى تعنى فى المحل الأول بدراسة المجتمعات البدائية أو التقليدية . وربما كان السبب الرئيسى فى اهتمام العلماء بدراسة القرابة هو الدور الهام الذى تلعبه علاقات وروابط القرابة فى الحياة الاجتماعية ، علاوة على طرافة الموضوع ذاته وبخاصة فيما يتعلق بعادات الزواج المختلفة وأشكال العائلة فى مختلف المجتمعات مما يجعل موضوع القرابة من أكثر موضوعات الانثروبولوجيا الاجتماعية جذبا واسترعاء لانتباه العلماء واهتمامهم . ولكن على الرغم من كثرة ما كتب حول موضوع القرابة وبخاصة حول نظم الزواج وأشكال العائلة وتطورها ومشكلاتها فلا يزال ميدان

الدراسات القرابية يفتقر بشكل ملحوظ إلى نظرية عامة يمكن فى ضوئها تحليل وفهم وتفسير انساق القرابة المختلفة . وليس من شك فى أن ذلك يرجع من ناحية إلى كثرة هذه الانساق واختلافها وتنوعها إلى حد كبير ، ومن جهة أخرى الى تعقد نسق القرابة ذاته فى أى مجتمع من المجتمعات واتصاله الوثيق ببقية الانساق والنظم ذاتها .

ومما يذكر ان ابن خلدون سبق له أن انتبه إلى نسق القرابة فى مجال حديثه عن العصبية ، ووضع بذور نظرية متماسكة نقلها عنه كثير من المستشرقين وبخاصة روبرتسون سميث ، لكى تنتقل بعد ذلك إلى علماء الانثروبولوجيا الاجتماعية البريطانيين وبخاصة ايفانز بريتشارد وتلاميذه الذين اهتموا بدراسة انساق القرابة فى أفريقيا والعالم العربى . ولكن لم يتح لنظرية ابن خلدون وآرائه إن تجد من يهتم بها ويعمل على تطويرها نظرا لاكتفاء المشتغلين بالعلوم الاجتماعية فى العالم العربى بالكتابة عن نظم الزواج وأشكال العائلة وترديد التقسيمات والتصنيفات التى تمتلىء بها كتب علم الاجتماع الأمريكى بوجه خاص . والواقع أن اهتمام علماء الغرب بدراسة انساق القرابة يقتصر على علماء الانثروبولوجيا الاجتماعية الذين يوجهون معظم اهتمامهم الى المجتمعات البدائية أو التقليدية حيث يدرسون فيها الانساق الاجتماعية المختلفة بما فيها النسق القرابى وما يقوم بين هذه الانساق من تفاعل وتداخل وتشابك بقصد فهم البناء الاجتماعى العام لتلك المجتمعات .

ولقد استدل علماء القرن التاسع عشر من الانثروبولوجيين ، من بعض مصطلحات القرابة المستخدمة فى عدد من المجتمعات القبلية البدائية ، والتى تطلق على عدد كبير من الأشخاص فى الوقت

نفسه ، على مرور الانسانية بمرحلة من التحرر الجنسى المطلق ثم بمرحلة زواج الجماعة ، وأن نظام الانتساب للأم سبق على هذا الأساس نظام الانتساب للأب . فاستخدام كلمة قرابية واحدة أو مصطلح قرابى واحد لعدد من الأشخاص (مثل استخدام كلمة « أب » للأعمام) كان يعنى عندهم اذن وجود علاقة جنسية بين هذه الفئة من الأشخاص وامرأة واحدة أو عدة نساء ، وبالتالى فان مصطلح القرابة يشير بالضرورة إلى وجود رابطة دم وقيام صلة بيولوجية بالفعل . وعلى الرغم من أن للقرابة جانبين متكاملين هما الجانب البيولوجى والجانب الاجتماعى ، فان تمسك علماء القرن الماضى بهذا المبدأ ومحاولتهم تطبيقه فى كل الأحوال وعلى كل النظم أدى الى وقوعهم فى كثير من الأخطاء ، وترتب عليه ظهور تلك التفسيرات والنظريات التى لا تستند فى واقع الأمر إلى أية حقائق يقينية أو معلومات مؤكدة . ويبدو هذا الاتجاه واضحا من عنوان كتاب مورجان وهو « انساق روابط الدم والمصاهرة فى العائلة الانسانية » . وكان يقصد بروابط الدم Consanguinity ما نقصده الآن من كلمة « قرابة Kinship » ، وفى ذلك ما يدل بوضوح على اعتقاده واعتقاد غيره من العلماء من أن القرابة تستند بالضرورة إلى روابط الدم وأن العنصر البيولوجى هو بالتالى عنصر جوهرى فى قيام العلاقات القرابية . ومع التسليم بوجود العنصر البيولوجى فى القرابة فى معظم الأحوال ، فقد دلت الأبحاث والدراسات الانثروبولوجية التى أجريت فى عدد كبير من المجتمعات البدائية والجماعات القبلية فى أفريقيا وأستراليا وغيرها على أن هناك بعض نظم القرابة التى لا تعترف بوجود ذلك العنصر البيولوجى ، وأن المجتمع كثيرا ما يعتبر بعض الأشخاص أقارب دون أن تكون بينهم أى صلة أو رابطة من روابط الدم ، كما أنه فى أحيان أخرى لا يعترف المجتمع بوجود روابط وعلاقات قرابية بين أشخاص تقوم

بينهم روابط الدم . ومن هنا نجد أن الرأى السائد الآن بين العلماء المحدثين هو اسقاط كلمة « رابطة الدم » تماما من كتاباتهم واستخدام كلمة « قرابة » بدلا منها ، على اعتبار أن للكلمة الأولى بعض الدلالات الخطرة ، كما أنهم فى معالجتهم لأنساق القرابة يغفلون تماما الناحية البيولوجية ويركزون اهتمامهم على الدلالات الاجتماعية لتلك الأنساق . فالقرابة تعالج الآن فى الدراسات الاجتماعية والأنثروبولوجية على أنها نظام اجتماعى بحت ينظم العلاقات الاجتماعية بين أفراد معينين فى المجتمع يعرفون بأنهم أقارب ، حتى وإن لم توجد بينهم صلات بيولوجية . والواقع أن بعض المجتمعات البدائية لا يدرك فى مسألة القرابة ، وبخاصة العلاقة بين الأب والابن ، وجود الصلة البيولوجية فكثير من الجماعات القبلية الأمومية فى أستراليا رغم معرفتها نظام الزواج لا تدرك الصلة بين المباشرة الجنسية والأجانب ، وانما ترد الانجاب إلى تسلل أرواح الأجداد أو الأسلاف إلى رحم المرأة « المتزوجة » . وهذا الاعتقاد نفسه يشيع عند التروبرياند . ويذكر لنا مالينوفسكى أن فكرة الأبوة الفسيولوجية غير معروفة لديهم . وإن كل « عملية ظهور أى حياة جديدة فى المجتمع تتركز فى العلاقة بين عالم الأرواح وأعضاء المرأة التناسلية ، وأنه ليس ثمة مكان لأى نوع من الأبوة الفيزيقية » .

صحيح أن الفتاه العذراء لا تحمل ولا تلد ولكن ذلك راجع فى رأى التروبرياندييين إلى أن رحم الفتاة العذراء مغلق أمام الأرواح فلا تستطيع التسلل إليه ، فالزواج والعلاقة الجنسية هما الوسيلة الوحيدة التى يمكن بها ازالة العوائق التى تعترض سبيل تلك الأرواح دون أن يكون لهما هما نفسهما دخل فى عملية الانجاب .

وليس هذا الأمر قاصرا على المجتمعات الأمومية التى يرد

نسب الطفل فيها إلى الأم ويسود فيها نظام القرابة الأمومى ولا يحتل فيها الأب سوى مكانة اجتماعية ثانوية بالنسبة لمكانة الأم ، وانما هناك أمثلة أخرى كثيرة فى المجتمعات الأبوية التى تتركز السلطة فيها فى يد الرجال كما يرد النسب فيها فى خط الذكور ولكنها مع ذلك لا تعطى أهمية كبيرة ، فى بعض الحالات على الأقل ، للناحية البيولوجية وأن كانت تعترف بوجودها . وقد يكون من الأفضل أن نذكر هنا بعض الأمثلة المستمدة على الخصوص من المجتمعات القبلية فى أفريقيا لتوضيح التفرقة التى يقيمها العلماء المحدثون بين الناحيتين البيولوجية والاجتماعية للقرابة .

وربما كان أفضل الأمثلة على ذلك هو التمييز بين نوعى الأبوة الذى يلعب دورا هاما فى فهم الانساق القرابية فى كثيرا من المجتمعات وعلاقات القرابة المعقدة التى تربط بين أفرادها ، ونعنى بذلك التفرقة بين الأب الفيزيقى Genitor والأب الاجتماعى Pater . والمقصود بالأب الفيزيقى هو الشخص الذى أنجب الطفل ، بينما يقصد بالأب الاجتماعى الشخص الذى ينتسب الطفل اليه بالفعل فيحمل اسمه ويرث مكانته ومركزه الاجتماعى كما يرث ثروته . ومع أن الأبوة المثالية هى تلك التى يكون فيها الأب الفيزيقى (أو الوالد المنجب) والأب الاجتماعى شخصا واحدا ، فان ذلك ليس هو الحال دائما . فعند النوير مثلا نجد أنه حين يقتل شخص غير متزوج فى أحد المعارك فان أهل القاتل يقدمون لأهل القتيل لكى يتم الصلح بين الجماعتين احدى فتياتهم ليزوجوها الى « اسم القتيل » نفسه ، ويقوم أحد أقارب القتيل العاصبين بالاتصال بها جنسيا باعتراف المجتمع واقراره ، على أن ينتسب الأطفال الذين تنجبهم تلك المرأة الى القتيل نفسه ، فيعتبرون أبناء شرعيين له يحملون اسمه ويرثون مكانته الاجتماعية ويتمتعون بكل الحقوق

والامتيازات التى كانت ستؤول اليهم فيما لو كان القتيل نفسه قد أنجبهم بالفعل . ويعرف هذا النوع من الزواج باسم « زواج الشبح Ghost marriage » . وفى هذا النوع من الزواج نجد أن القتيل يقوم بدور الأب (أقصد الأب الاجتماعى Pater) ، بينما يقوم قريبه العاصب بدور الوالد (أقصد الأب الفيزيقى genitor) ، ولا تكون له أية حقوق شرعية على الزوجة وأولادها . والواقع أن هذا النظام ناشىء من تطور البناء الاجتماعى القبلى عند النوير . فالمجتمع النويرى يقوم فى أساسه على ضرورة تماسك القبيلة عبر الزمن ولذا فانهم يحرصون على تذكر أسماء الأشخاص الذين ماتوا ويفخرون بهم على أساس أن عدد أفراد القبيلة له أهمية فى حياتهم اليومية . ولما كانت أفضل طريقة لذلك هى أن يترك المرء من خلفه من يحمل اسمه ، فان المجتمع يعمل على تعويض الشخص الذى يموت قبل أن ينجب عن طريق نظام زواج الشبح ، حتى لا يحرم ذلك الشخص من القرابين والاضحيات التى تقدم إلى روحه وحتى يستمر فى هذه الحياة متمثلا فى شخص « أبنائه » الذى ينجبهم قريبه العاصب باسمه . ومن ناحية أخرى يمارس النوير الزواج (الليثيراتى) الذى يمارس الرجل بمقتضاه حق الاتصال جنسيا بأرملة أخيه لينجب له منها أطفالا يحملون اسمه . فكأن الشخص الميت فى هاتين الحاليتين يعتبر أبا لأبناء لم ينجبهم ، فى الوقت الذى يحرم فيه الوالد الحقيقى لهؤلاء الأبناء من حق الأبوة .

ويوجد نظام زواج الشبح عند بعض قبائل جنوب أفريقيا وبخاصة عند الزولو ، ولكنه يتخذ هناك شكلين أساسيين أو على الأصح فانه يمارس فى حالتين اثنتين : الأولى هى حين يموت الرجل بعد أن تكون خطبته قد تمت على فتاة معينة دون أن يدخل بها فتتزوج الفتاة من أحد أقاربه العاصبين لتجنب للميت أولادا

يحملون اسمه . والحالة الثانية تشبه ما نجده عند النوير ، حين يموت الرجل قبل أن يتزوج فان أحد أقاربه يقوم بعملية (ايقاظ) الميت بأن يتزوج باسمه امرأة تنجب له الأبناء .

بل إن الأمر يذهب إلى أبعد من ذلك عند الزولو ، إذ كثيرا ما يتزوج الرجل الغنى ذو المركز الممتاز من عدد كبير من النساء ويسمح لأفراد جماعته القرابية العاصبة بالاتصال بهن جنسيا نيابة عنه بقصد الخلفة والانجاب على أن ينتسب جميع الأطفال له . فهنا أيضا نجد التفرقة واضحة بين الوالد (الأب الفيزيقى) والأب الاجتماعى .

والواقع أن هناك من نظم الزواج أشكالا تذهب إلى حد التطرف فى توكيد وابراز أهمية الناحية الاجتماعية واغفال أو حتى انكار الناحية البيولوجية فى علاقة الابوة والبنوة وبالتالى فى نسق القرابة ككل ، بحيث نجد أن الأبوة التى يفترض فيها انها من صفات وخصائص الرجل الذكر كثيرا ما تنسب إلى الانثى . وهذا النظام الذى يناقض الأوضاع المنطقية القائمة على الفوارق الطبيعية بين الجنسين يوجد عند النوير والزولو أيضا وغيرهما من شعوب أفريقيا . ففى هذه الشعوب نجد أن المرأة الغنية التى تنتمى إلى عائلة قوية كثيرا ما تريد أن تلعب فى الحياة الاجتماعية دور الرجل فتتزوج من امرأة أخرى وتدفع لها مهرا من الماشية ثم تنيب عنها أحد أقاربها من الرجال للقيام بوظيفة الانجاب باسمها لكى تصبح هى « أبا » اجتماعيا Pater للأطفال الذين تنجبهم تلك « الزوجة » وبذلك ينتمى الأطفال الى بدنة « المرأة الزوج » كما لو كانت رجلا . ومن ناحية أخرى كثيرا ما يحدث فى الحالات التى يموت فيها أحد الزعماء أو الرؤساء أو أحد الرجال المهمين ممن يحتلون مركزا ممتازا فى المجتمع دون أن يترك وراءه ابنا ذكرا إن

تقوم الأبنة الكبرى بالزواج من امرأة أخرى بنفس الطريقة على أن ينتسب الأطفال إلى الزعيم أو الرئيس المتوفى ، وبذلك يحملون اسمه مثلما تحمله هى نفسها ، وذلك بالاضافة إلى أنهم يعتبرون فى الوقت نفسه ابناءها (بحكم زواجها الرسمى) من أمهم وبذلك تكون المرأة (الأب) والأبناء الذين (أنجبتهم) بهذه الطريقة أخوة بعضهم لبعض . والدافع الأساسى إلى قيام هذا الشكل من الزواج هو الخوف من لعنة الاسلاف حين لا يجدون من يقدم لأرواحهم القرابين وكذلك الرغبة فى استمرار الجماعة العاصبة(*) .

القرابة الطبقية :

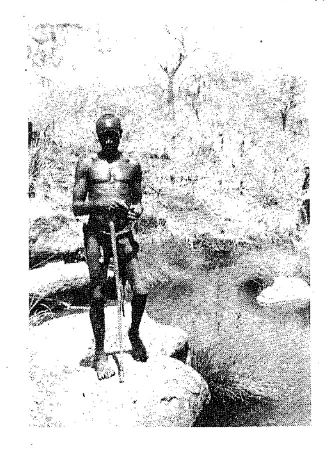
فى المجتمعات البدائية نجد أن نظام القرابة تقرره القبيلة وتسير عليه ، وهذا النظام يكون مبنيا على قواعد تختلف عن القواعد السائدة فى المجتمعات المعاصرة ، فمثلا « الأخت » ـ كما يفهم من اللفظ الآن ـ هى ابنة الأب أو الأم ، أو ابنة الأب والأم معا (وهى الأخت الشقيقة) ، ولكن عند الشوشون ـ من هنود أمريكا نجد كلمة أخت تطلق على الأخت الحقيقية وكل البنات اللاتى فى طبقتها ، أى على بنات العم وبنات العمة وبنات الخالة وبنات الخال ، وكل تلك « الطبقة » من البنات تعامل على أنها طبقة أخوات ويجرى عليها ما يجرى على « الأخت » الحقيقية ، أى أنه يحرم الزواج بين الفرد وأية بنت من هذه الطبقة لأنها تعد أخته ،

---

* loc.cit ويجب التفرقة هنا بين الوالد او المنجب (الأب الفيزيقى genitor والعشيق) ذلك أن (الوالد) شخص يعينه المجتمع لاداء وظيفة معينه معترف بها إجتماعيا . فعلاقته بالمرأة ليست علاقة جنسية غير مشروعة تتم فى الخفاء ، وإنما هى العلاقة رسمية يقرها العرف والتقاليد كما تستتبع احيانا بعض الإلتزامات . مثال ذلك أن قواعد الاكسوجامية (الزواج الإغترابى أو الخارجى) التى بمقتضاها يحرم على الرجل أن يتزوج من بدنة أبية (العائلة الكبيرة) تنطبق على الوالد والأشخاص الذين ينجبهم ، إذ يحرم عليهم الزواج من بدنته نظرا لأن الرابطة الفسيولوجية بينهما معترف بها إجتماعيا .



قبائل الهدندوه جبال البحر الاحمر ـ السودان



قبائل الأنقاساناه

مديرية النيل الأزرق

السودان

فالقرابة فى معظم المجتمعات البدائية مبنية على أساس « طبقات السن » فكلمة أب لا تشمل الأب البيولوجى ـ وهو الشخص الذى أنجب الفرد بيولوجيا فقط ، ولكنها تنسحب على كل رجال القبيلة الذين هم فى وضعه من ناحية السن مثلا أو الدرجة القرابية كالعم ، أو الخال . وكذلك الشأن فى لفظى أم أو أخ وذلك هو ما يسمى بالقرابة الطبقية Classificatory . أى أن لفظ أب لا يطلق على شخص واحد بل على طبقة من الرجال لها وضع خاص فى القبيلة من حيث السن والعلاقة بالأب البيولوجى ، وكذلك لفظ أم يطلق على طبقة بأكملها من النساء اللاتى يشبهن الأم البيولوجية من حيث السن مثلا .

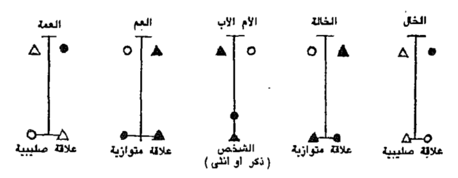
القرابة المتوازية والصليبية (نظام الطبقات الزواجية) :

تلجأ بعض المجتمعات البدائية إلى تحديد للقرابة بشكل يتجاهل كلية العلاقات البيولوجية بين الأفراد : فمثلا فى هذه المجتمعات يقسمون أبناء العم وبنات العم إلى قسمين ، قسم يعد فيه أبناء وبنات العم أو الخال أو الخالة أقارب كما يعدون أخوة وأخوات وذلك فى حالة ما إذا كان الشخص الذى هو سبب القرابة من جنس الشخص الأصلى للقرابة ، فمثلا ابن العم أو بنت العم يعدان أخوين للشخص لأن العم فى الحالة الأولى ذكر وهو من نفس جنس الأب وهو أصل القرابة ، ويسمى العلماء هذه الصلة باسم « أبناء العمومة أو الخئوله المتوازية Parallel .

أما القسم الثانى فنجد فيه أبناء العمومة أو الخئولة أباعد ولا يعدون أقرباء وذلك فى حالة ما إذا كان الشخص الذى هو سبب القرابة من جنس يخالف جنس الشخص الأصلى للقرابة . فمثلا يعد ابن الخال أو بنت الخال بعيدة عن الشخص لأن سبب القرابة وهو الخال ذكر يختلف فى جنسه عن أصل القرابة وهى الأم

(أنثى) ، وكذلك تعد بنت العمة أو ابن العمة بعيدا لا قريبا للشخص لأن القرابة هنا ترجع إلى العمة وهى التى تختلف فى جنسها عن أصل القرابة وهو الأب فى هذه الحالة (ذكر) ، ويسمى العلماء هذه الصلة باسم أبناء العمومة أو الخئولة محرم تحريما باتا بين أبناء العمومة والخئولة المتوازية بينما هو مباح بين أبناء العمومة والخئولة المتلاقية مثلا .

والشكل الآتى يبين انقسام القبيلة إلى علاقات متوازية وأخرى صليبية :



من هذا الشكل يتبين أن أولاد الخال يعدون أباعد فالخال ذكر بينما الأم التى هى سبب القرابة أنثى ، وكذلك يعد أولاد العمة أباعد لأن العمة أنثى بينما الأب الذى هو سبب القرابة ذكر . وبالعكس أولاد الخالة وأولاد العم يدعون أخوة للشخص لأن كلا من الخالة والعم من نفس نوع جنس الفرد الذى هو أصل القرابة .

ففى القبائل التى تتبع نظام أبناء العمومة والخئولة المتوازية والصليبية يعد أولاد العمومة والخئولة الصليبية أباعد كلية عن القبيلة . ولما كان الزواج مباحا بين الشخص وأصحاب العلاقة الصليبية ، ومحرما بينه وبين أصحاب العلاقة المتوازية ، فإن كثيرا من العلماء يسمى هذا النظام بنظام الطبقات الزواجية Marriage classes أى أن القبيلة أو القبائل قد انقسمت وفق نظام

معين إلى طبقات تختلف عن بعضها قربا وبعدا . ويحل الزواج بين طبقات خاصة (الطبقات الصليبية) بينما يحرم بينه طبقات أخرى (الطبقات المتوازية) . ففى كل مجتمع إذن نجد نظاما للقرابة خاصة به ، وهذا النظام يؤدى إلى التحريم والتحليل فى الزواج بين أفراد القبيلة . ويسود نظام القرابة الصليبية والقرابة المتوازية عند معظم قبائل أمريكا الشمالية .

القرابة التوتمية :

تنشأ القرابة الاجتماعية التى تقوم بين أشخاص لا يرتبطون بعضهم ببعض بروابط فيزيقية أو دموية ، فى المجتمعات البدائية نتيجة لكثير من النظم الاجتماعية الأخرى وتفرض على أفرادها كثيرا من القيود والحقوق والواجبات التى لم تكن لتوجد لولا هذه الروابط الاجتماعية البحتة . وهذا هو الحال فيما يتعلق بالأشخاص الذين ينتمون إلى « طوطم totem » واحد قد يكون حيوانا (وهذا هو الأغلب) أو نباتا أو إحدى القوى الطبيعية (وهذا نادر الحدوث) ويعتبرون أنفسهم من سلالة ذلك التوتم الذى يحملون اسمه وبذلك يعتبرون أنفسم أخوة وأخوات ويحرم عليهم الزواج فيما بينهم بالتالى ، على اعتبار أن الزواج بين الأخوة والأخوات هو نوع من الزنا بالمحارم . ومع أن أفراد التوتم الواحد يكونون فى العادة مبعثرين أشد التبعثر ولا تكاد توجد بينهم روابط قرابة دموية فإن ذلك لا يقلل بحال من قوة الروابط القرابية الاجتماعية . ويشير معظم الكتاب المحدثين إلى هذا النوع من القرابة باسم « القرابة المتخيلة أو المتوهمة ficticious نظرا لعدم وجود روابط فيزيقية حقيقية تربط بين الناس والطوطم من ناحية وبين كثير من أفراد الجماعة الطوطمية أنفسهم . ولكننا نفضل استخدام كلمة « الرقابة الاجتماعية » لذلك لما تتضمنه من الدلالات .



قبائل الهدندوه جبال البحر الأحمر ـ السودان

قرابة التبنى :

ويعتبر نظام « التبنى » أيضا الذى يشيع فى معظم المجتمعات القبلية من أهم النظم التى تؤدى إلى ظهور القرابة الاجتماعية . فحتى فى الحالات التى لا يسمح للشخص الذى تبنته القبيلة أو العشيرة أن يتزوج من إحدى بناتها فإن أولاده يعتبرون أولادا لهم بحيث يتنادون فيما بينهم بنفس مصطلحات القرابة التى يستخدمها الأقارب الحقيقيون . ومن الطريف فى هذا الصدد أن نجد النوير حين يأسرون أو يخطفون أحد الأشخاص من الدنكا فيعيش بينهم دون أن يقوموا نحوه بشعائر التبنى (وبذلك يظل غريبا عنهم تماما) فإنهم لا يسمحون له فى الأغلب بالزواج من نفس عشيرة الشخص الذى قام بأسره أو اختطافه ، أى أن قواعد الزواج الاكسوجامى تطبق عليه كما لو كان عضوا فى العشيرة . يضاف إلى ذلك أنهم يعتبرون أولاده أولادا لهم فيحرم عليهم الزواج مثلا من بناته ، ليس فقط لأنه يعيش بينهم بل وأيضا لأنهم هم الذين قاموا بدفع مهر عروسه وقت الزواج ، وبذلك أصبحت لهم حقوق والتزامات وقيود معينة نحو أولاده . وتتمثل هذه الحقوق والواجبات والقيود فى تحريم التزاوج معهم واستخدام مصطلحات القرابة الشائعة فى المجتمع بالنسبة لهم .

تحريم الزواج بالأقربيات Incest :

من المعروف أنه عند المسلمين والمسيحين لا يجوز للرجل الزواج باخته ولا بابنة أخته وكذلك بابنة أخيه ، ولا بأمه أو أم أمه أو أم أبيه ، ولا بخالته ولا بعمته ولا بابنته . كذلك يحرم الزواج بين الأخوة فى الرضاعة ، وبزوجة الأب ، وبين الأخوة فى التعميد (عند المسيحيين) .. إلى آخر كل تلك الحالات من التحريم .

والواقع أن هذه التحريمات موجودة فى جميع الأديان والمجتمعات البدائية والقديمة والحديثة مع تفاوت كبير بين المجتمعات فى هذا الشأن . ويسمى مثل هذا التحريم عند علماء الانسان باسم تابو الزواج بالأقربيات Incest Tabuo أو بين الأقربين وهذه التحريمات ليست غريزية ، لأن أساس التحريم اجتماعى ثقافى بحت ، أى يرجع للنظم والعادات والتقاليد السائدة ، وعلى الأخص لنظم القرابة التى تنشىء الأفراد على تحريمات معينة ، وبمرور الأجيال والأزمنة تتكون لدى الأفراد قيم واتجاهات معينة تقوى ما يرتبط بنظم القرابة ونظم الزواج من تحريمات .

ولقد حاول علماء الانسان تفسير الأساس الذى بنى عليه تحريم الزواج بين بعض فئات الأقارب فى المجتمعات ، ولقد أرجع كل من وسترمارك فى كتابه « تاريخ الزواج الانسانى » ومورجان فى كتابه « المجتمع القديم » هذا التحريم إلى عوامل بيولوجية أو حيوية ، ففى رأيهما أن المجتمعات الانسانية قد فطنت منذ العصور السحيقة ، إلى أن زواج الأقارب الأقربين ينتج عنه نسل ضعيف جسميا وعقليا وأحيانا مشوها ، ولما كانت هذه المجتمعات حريصة على نسلها راغبة فى أن يكون نسلا سليما قويا فقد حرمت مثل ذلك الزواج وعاقبت من يقدم عليه عقابا صارماً . فنظام التحريم إذن يلعب وظيفة اجتماعية هامة ـ فى رأى وسترمارك ومورجان ـ إذ يحفظ النسل قويا خاليا من التشوهات الجسمية أو العقلية ويؤدى إلى تخليد السلالة أو النوع .

والواقع أن تلك النظرية ليست مقنعة لأن التزاوج بين الأقارب الأقربين لا يؤدى بالضرورة إلى تشوهات جسمية أو عقلية ولا يكون من شأنه وفى كل الحالات القضاء على السمات القوية

للسلالة . ذلك لأن التزاوج الداخلى أو زواج الأقارب الأقربين يؤدى إلى إظهار السمات المتنحية وفق قانون ماندل ، فإذا كانت تلك السمات تمثل صفات قوية مرغوبا فيها فإن هذا التزاوج يؤدى إلى تقوية السلالة والنسل ، أما إذا كانت تمثل صفات ضعيفة غير مرغوب فيها فإنه يؤدى إلى إضعاف النسل ، وعلى ذلك فهو ليس ضارا فى جميع الحالات ، ومن المستبعد أن يكون للأساس البيولوجى دخل فى تحريم زواج الأقارب الأقربين فى الماضى وربما كان من الأدلة على ذلك أن كيلوباترة ملكة مصر البطلمية كانت تتفوق على نساء العالم فى ذلك الوقت من ناحية السمات الجسمية ، كما كانت ذات مستوى ذكائى خارق للعادة ، ومع ذلك فهى كانت ثمرة لاثنى عشر جيلا ساد فيها الزواج الداخلى بين الأخوة والأخوات فى أسرتها الملكية ، وكان نظام تحريم الزواج بالأقربيات لا يسرى على الأسر الملكية حفاظا على الدم الملكى وعلى ثروات الأسر الملكية .

وإذا كان التحليل البيولوجى لظاهرة تحريم الزواج بين الأقارب الأقربين غير كاف وغير مقنع فإن كثيرا من العلماء قد بحثوا عن تعليل اجتماعى لهذه الظاهرة وسنختار من بين تلك النظريات نظريتى مالينوفسكى ودور كايم . يذهب مالينوفسكى إلى أن الزواج بين الأقارب الأقربين (أى بين الآباء والبنات مثلا أو الأخوة والأخوات) لو كان محللا فإنه كان سيؤدى إلى القضاء على الأسرة أو العشيرة وبالتالى إلى القضاء على الحياة الاجتماعية ، لأنه كان سيؤدى إلى نوع من الاباحة الجنسية ، وهو النظام التى يتنافى مع نظام الأسرة تنافيا تاما . ويشرح مالينوفسكى نظريته فيقول أن الفرد عندما ينشأ فى الأسرة منذ طفولته تنشأ بينه وبين أفرادها علاقات الحب والود القائمين على

أسس بعيدة كل البعد عن الجنس ، إذ ينشأ بينه وبين الوالدين حب أو عطف أبوى وأمى وبينه وبين أخوته وأخواته حب أخوى بعيد عن الجنس . وهذه العواطف الودية هى التى تربط بين أفراد الأسرة بروابط قوية ثابتة وهى تبدأ منذ الطفولة ، وقبل سن المراهقة بسنوات طويلة وتؤدى إلى وجود التضامن بين أفراد الأسرة الواحدة . فالأسرة مبنية جزئيا على الدوافع الجنسية المشروعة بين الزوجين ، ولكن لو امتدت العلاقات الجنسية بحيث تكون بين الأبناء مثلا والأمهات ، أو بين الأخوة والأخوات فإن هذا يؤدى إلى أخطار جسيمة تحيق بالأسرة وتقضى على تضامن أفرادها . ويرى مالينوفسكى أن تحريم الزواج بين الأقارب الأقربين فى جميع المجتمعات قد حمى التضامن الاجتماعى فى هذه المجتمعات البشرية . ولكن هذه النظرية أيضا ليست مقنعة ، إذ لو كانت صحيحة لكان التحريم يطبق على شبان القبيلة وشاباتها الذين يعيشون تحت سقف واحد بينما كان الواجب ألا يطبق فى حالة شبان القبيلة وشباتها الذين يسكنون فى مناطق متقاربة أو الذين يعيشون متباعدين . ولكننا نجد فى حالة الطبقات الزواجية أن ثمة فئات يحرم الزواج بينها مع أنها قد تكون منتمية لعشائر مختلفة ، فمثلا يحرم الزواج بين بنت الخالة وابن خالتها ، مع أنهما فى المجتمعات التى تتبع نظام نسب الأب ينتميان لاسرتين مختلفتين .

وقد أرجع إميل دوركايم تحريم الزواج بين الأقارب الأقربين إلى عوامل دينية ، وذلك لأن أفراد الأسرة أو المعشر يشتركون جميعا فى تقديس معبود واحد يعبدونه ويؤدون له صلواتهم وطقوسهم وقرابينهم . فالأسرة أو المعشر تكون وحدة أخلاقية سياسية دينية ، والمرأة مفروض فيها أنها تحمل عنصر

القداسة عند البدائيين لأنها هى التى تلد وليس الرجل . وعلى ذلك لما كان نساء الأسرة أو العشيرة مشتركين فى نفس الوحدة الدينية التى يمثلها توتم الأسرة ، ولما كان هؤلاء النساء يحملن عنصر القداسة التوتمى ولما كانت الحياة الجنسية معتبرة دنيئة لا تتفق مع القداسة الدينية فإن ذكور الأسرة ـ تحت تأثير الدوافع الغريزية ـ كان عليهم أن يبحثوا عن زوجات لهم من خارج الأسرة . ومن ثم نشأت قاعدة تحريم الزواج بين الأقارب الأقربين ، وقاعدة الزواج الخارجى . وتلك هى نظرية دور كايم التى يصعب تطبيقها مثلا فى حالة التفرقة بين القرابة المتوازية التى تحرم الزواج بين أفرادها والقرابة الصليبية التى تبيح الزواج ، فمثلا يحرم الزواج بين الشخص وبين ابنة خالته (علاقة متوازية) بينما يباح له الزواج من ابنة خاله (علاقة صليبية) مع أن هاتين الانثيين قد تكونان منتميتين لتوتمين مختلفين تمام الاختلاف عن توتم المعشر أو الأسرة التى ينتمى إليها الشخص .

وعلى الرغم من أن ظاهرة تحريم الزواج بين الأقارب الأقربين هى ظاهرة عامة توجد فى كل المجتمعات البشرية إلا أن العلماء لم يتمكنوا من إيجاد نظرية مقنعة تفسر هذا التحريم فى كل صوره وحالاته . وقد يكون السبب فى هذا أن هذا التحريم عام ، إذ لو كان قاصرا على مجتمعات دون أخرى فربما كان ذلك من العوامل التى تساعد على فهم أسسه والعوامل المؤدية إليه عن طريق مقارنة المجتمعات التى يوجد فيها بتلك التى هى خلو منه . ولكن تلك المقارنة التى كان من الممكن أن تساعد على فهم أسس التحريم والتحليل غير ممكنة .

ظاهرة تحريم الزواج بالأقربيات وعلاقتها بنظام الزواج :

يتعلق بظاهرة تحريم الزواج بالأقربيات ظاهرة الزواج من خارج الأسرة أو المعشر أو ما يسمى بالزواج الخارجى Exogamy والزواج الخارجى يعنى التقليد أو القانون السائد فى معظم المجتمعات ، ويلزم الفرد بالزواج من خارج الأسرة أو العشيرة التى هو عضو بها . وهو نظام يسود فى الغالبية العظمى من المجتمعات التى يتبع النسب فيها الأب فقط أو الأم فقط وهى المجتمعات التى تسمى باسم المجتمعات وحيدة النسب Unilineal ويرى علماء المدرسة الوظيفية وعلى رأسهم مالينوفسكى ، أن نظام الزواج الخارجى يلعب وظيفة هامة ويقوم بدور خطير فى المجتمعات البشرية لأنه يؤدى إلى الربط بين الوحدات التى يتكون منها المجتمع ويقوى وضع الأسر المتصاهرة من النواحى الاقتصادية والعسكرية والسياسية لأنه يوجد بينها تعاونا اقتصاديا وعسكريا ويكون منها وحدة سياسية يكون لها وزنها فى توحيد المجتمع وتكتله ضد القوى الخارجية التى قد تعتدى عليه . كما أن الزواج الخارجى يلعب دورا آخر هاما وهو تنشيط الانتشار الثقافى أى انتقال نماذج ونظم اجتماعية إلى أخرى أو من معشر لآخر .

ومن ناحية أخرى ، نجد أن هناك قاعدة أخرى للزواج تسود فى عدد قليل من المجتمعات ، وهى قاعدة الزواج الداخلى Endogamy والزواج الداخلى ـ عكس الزواج الخارجى ـ هو القانون أو القاعدة الاجتماعية أو التقليد الذى يفرض على الفرد أن يتزوج من الوحدة الاجتماعية التى ينتمى إليها ثقافيا ، أى التى ينتمى إليها بحكم النظام السائد فى ذلك المجتمع . ونظام الزواج الداخلى ليس نظاما عاما ومنتشرا مثل نظام الزواج الخارجى ، بل هو فى الواقع يمثل استثناء من القاعدة العامة وهى أن المجتمعات عادة

تسير على نظام الزواج الخارجى ونظاما الزواج الداخلى والزواج الخارجى نظامان متعارضان متقابلان ، ولذلك فهما لا يسودان مجتمعا واحدا فى وقت واحد ، وإن كانا قد يسودان تحت ثقافة واحدة فى مجتمعين مختلفين يخضعان لهذه الثقافة .

وأشهر نظام للزواج الداخلى هو نظام الطوائف المهنية ، وهو النظام الذى ساد فى كثير من المجتمعات ولا سيما فى الهند ، ففى الهند توجد حوالى ألفى طائفة مهنية أصلية وفرعية يحرم الزواج بينها بشكل رسمى ، إذ تتمسك كل طائفة بأن يكون الزواج فيها مقصورا على الزواج بين أتباعها مع تحريم الزواج بين أفرادها وأفراد الطوائف الأخرى . ورغم معارضة الدستور الذى بدأت تطبقه الهند بعد استقلالها عن الحكم البريطانى ، للتفرقة بين الطوائف وقواعد الزواج الداخلى ، إلا أن الكثير من الطوائف المهنية ما زالت تتمسك بقاعدة الزواج الداخلى .

كذلك تسود قاعدة الزواج الداخلى عند كثير من قبائل أفريقية الشرقية والوسطى ، مثل قبائل ماساى Masai ورواندا . ففى قبائل رواندا نجد الانقسام إلى طوائف من أهمها طائفة النبلاء الرعاة الذين نزحوا إلى البلاد من الشمال ، ثم طائفة الهوتو Hutu ثم طائفة الصيادين المنخفضة فى السلم الاجتماعى Twa أوتوا ، والطائفة الحاكمة فى البلاد هى طائفة Tussi وأفراد الطائفة الحاكمة عليهم أن يتزوجوا من بين بعضهم بعض إلا إذا أصبح أحدهم فقيرا ، وفى هذه الحالة يستطيع أن يتزوج من طائفة الهوتو . ولكن محظور على أفراد طائفتى التوسى والهوتو أن يتزوجوا من طائفة التوا .

ونجد قاعدة الزواج الداخلى فى كثير من الأحيان تسود بعض

الأسر والطبقات الاجتماعية فى مجتمعاتنا الحديثة وفى المجتمعات القديمة : ففى المجتمعات القديمة كان يحظر على أفراد الأسرة المالكة أن يتزوجوا من خارج أسرهم لأن الدم الملكى دم مقدس أو الهى لا يصح أن يختلط بدم آخر ، وكان هذا هو السبب فى سيادة زواج الأخ بأخته فى كثير من الأبلطة القديمة . وفى العصور الحديثة يصر معظم الشبان والشابات فى المجتمع على الزواج من قرين أو قرينة من طبقته ومركزه الاجتماعى ، وبعض الأسر والقبائل فى المجتمعات الحديثة تصر على زواج بناتها من شبان الأسرة ولا تسمح بزواج شاباتها من خارج الأسرة . وكذلك نجد الزواج الخارجى أو الزواج المختلط ممجوجا فى كثير من المذاهب الدينية ، فمثلا العبرانيون الأرثوذكس يحرمون الزواج بالوثنيين أو « الكافرين » وعقاب من يخرج عن تلك القاعدة الطرد من الكنيسة والأسرة ، وكذلك تقوم عقبات كثيرة تحول بين الزواج بين الكاثوليك وغيرهم ، وفى الشريعة الاسلامية لا يحق للرجل أن يتزوج بغير كتابية ، كما لا يجوز للمسلمة أن تتزوج بغير مسلم وعند اليهود يحرم زواج اليهودى من غير يهودية إذ هم يعتقدون أنهم شعب الله المختار ولا يحق افساد هذا الشعب بادخال عناصر جديدة .. إلى غير ذلك من أمثلة لا حصر لها فى الأديان ولا سيما المنزلة منها . وفى السلك الدبلوماسى لكثير من الدول يحرم زواج الدبلوماسيين بأجنبيات . ونحن نرى من هذا كله أن قاعدة الزواج الداخلى قد يكون الغرض منها حفظ الدم العائلى أو التعبير عن نعرة طائفية أو طبقة وقد يكون السبب حفظ « النوع » نقيا لا تشوبه شوائب أجنبية ، وقد يكون المحافظة على الأولاد من التشتت الفكرى والعقلى وسقوطهم فى أمراض نفسية كما هى الحال ـ على ما يبدو ـ فى الاسلام والمسيحية لأن الولد الذى يولد لأب وأم مختلفين فى العقيدة يقع فى مشكلات نفسية تؤدى إلى ازدواج

الشخصية وأمراض أخرى نفسية خطيرة كما أن هاتين الديانتين ولا سيما الاسلام ، تحرصان على وحدة الأسرة واختلاف الزوجين فى العقيدة قد يكون من شأنه أن يؤدى إلى التفكك . هذا إلى جانب غرض آخر لا يخفى فى الأديان وهو الاكثار من النسل المؤمن ولذلك أبيح زواج المسلم من غير المسلمة وليس العكس لأن الأولاد فى الحالة الأولى سيولدون مسلمين ، خلافا للحالة الثانية . وقد يكون الغرض الحفاظ على أسرار المجتمع وسلامته كما هى الحال فى زواج الدبلوماسيين ... الخ .

ومن الصور الزواجية التى تسود فى بعض المجتمعات ما يسمى باسم الزواج القرابى ، أو البدلى أو الاستمرارى ، وهو نوع من الزواج يتم بين الأخ وزوجة أخيه بعد موته وذلك بقصد استمرار القرابة بين الأسرتين المتصاهرتين أصلا . ومن هنا سمى زواج المصاهرة أو الزواج الاستمرارى أى الذى يتم بقصد الابقاء على استمرار القرابة وبعد الأخ الزوج - بديلا عن أخيه المتوفى ومن هنا سمى هذا الزواج البدلى أو البديلى والأخ الذى سيحل محل أخيه المتوفى لابد أن يكون متزوجا لكى يكون له الحق فى الزواج من زوجة أخيه المتوفى ، فالزواج بالنسبة اليه يعد زواجا « ثانويا » فالزواج القرابى زواج يتم بين شخصين هم أصلا أقارب عن طريق المصاهرة . ويعتقد علماء المذهب الوظيفى أن أساس هذا النظام فى المجتمعات يرجع إلى الرغبة فى الابقاء على علاقة المصاهرة وما تقوم به من دور ضخم فى الربط بين الأسر أو العشائر . ولهذا النوع من الزواج صور أهمها :

(أ) الزواج بأخ الزوج Levirate (من اللاتينية Levir أى أخ الزوج أو ما يسمى سلف باللغة الدارجة المصرية) وهو

أشهر أنواع الزواج الاستمرارى أو زواج المصاهرة ، وأبسط صورة لهذا النوع هو أن يرث الأخ أرملة أخيه المتوفى بعد موته . ولكن فى كثير من الأحوال لا يسمح بهذا الاجراء فى المجتمعات إلا إذا كان الزوج الوارث أصغر من أخيه المتوفى . ولقد عرف نظام زواج المصاهرة عند شعوب كثيرة ، فهو سائد عند كثير من القبائل الاسترالية كقاعدة هامة ولقد كان العبريون يطبقونه وعند شعب انكاس فى بيرو كان الأخ الأصغر يرث كل زوجات أخيه المتوفى ما عدا الزوجة الأولى لأن الزوجة الأولى وفق تقليدهم لا يسمح لها بالزواج مرة ثانية حتى ولو توفى زوجها ولكن ماذا إذا كان الأخ الوارث لا يريد الزواج من أرملة أخيه ؟ تختلف المجتمعات فى هذه النقطة ففى بعضها كما هى الحال فى قبائل الكمانتش الأمريكية يعد هذا الزواج حقا من حقوق الأخ الوارث وله أن يتنازل عنه وأن يسمح لأرملة أخيه بالزواج من آخر ، وهو عادة لا يسمح لشخص آخر بالزواج منها إلا نظير اجر معين يقدر بحصان أو حصانين أو بعض الامتعه . وفى بعض المجتمعات الأخرى كقبائل الشوشون الأمريكية أيضا يعد هذا الزواج التزاما على الأخ أن يقوم به راضيا أم كارها ولكن ماذا عن الزوجة الأصلية للزوج الوارث ؟ هل يبقيها زوجة ثانية مع أرملة أخيه التى ورثها وتزوج بها ؟ ذلك يتوقف على ما إذا كانت القبيلة تبيح تعدد الزوجات ، فإذا كان تعدد الزوجات مباحا يستطيع الأخ الوارث الاحتفاظ بزوجته الأولى مع الثانية ، ولكى فى حالة نظام الزوجة الواحدة يتعين عليه أن يطلق زوجته الأولى لكى يتزوج من أرملة أخيه . وذلك هو ما حدث فى قبائل الشوشون سنة ١٩٣٣ عندما أجبرت أسرة أرملة

الأخ المتوفى الأخ الوارث على طلاق زوجته ليتزوج بأرملة أخيه .

(ب) زواج التصاهر المرتقب ، وهذا النظام يسود عند كثير من المجتمعات البدائية وقد كان سائدا عند كثير من الشعوب القديمة وفى هذا النظام يعتقد الأخ أنه سيرث زوجة أخيه أو أن أخاه سيرث زوجته يوما ما بعد أن يموت أى منهما وعلى ذلك يسمح الأخ الأكبر لأخيه الأعزب بمخالطة زوجته جنسيا ، على أن يسمح له أخوه الأصغر بعد أن يتزوج ، أن يخالط زوجته جنسيا هو الآخر ، وعلى ذلك ينشأ نوع من تعدد الأزواج داخل الأسرة الواحدة فالإخوه جميعا يخالطون زوجة أخيهم الأكبر المتزوج جنسيا . وفى النظام المنتشر عند الشوشون يسمى الأخ زوجة أخيه باسم « زوجة » ويعد العلماء هذا النظام بمثابة نظام تمهيدى لما عساه أن يحدث بعد وفاة الأخ المتزوج .

(جـ) الزواج بأخت الزوجة المتوفاه Sororate من اللاتينى أى أخت Soror وهذا النظام أيضا يقصد منه الابقاء على علاقة المصاهرة بين أسرتين وما تجلبه من فوائد اجتماعية على الأسرتين المتصاهرتين ـ كما قدمنا . وفى هذا النظام يكون لزاما على الزوج الذى توفيت زوجته أن يتزوج من أختها لكى تحل محلها ، وهو منتشر فى جميع قبائل أمريكا الشمالية ما عدا قبائل البيويلو ، كما يعد هذا حقا من حقوق الأخت على زوج أختها المتوفاة . ويجب الانخلاط بين نظام الزواج بأخت الزوجة المتوفاة ونظام تعدد الأخوات ، ففى الحالة الأولى لا يتزوج الزوج بأخت زوجته

الا بعد وفاة أختها ، أما فى الحالة الثانية فللزوج أن يجمع بين أختين أو أكثر كزوجتين فى آن واحد .

(د) الزيجات التصاهرية الممتدة ، ولكى نفهم هذا النظام علينا أن نتساءل ماذا يحدث فى حالة الزواج بأخ الزوج المتوفى أو الأخت المتوفاة إذا لم يكن للزوج أخ أو للزوجة أخت ؟ فى هذه الحالة تلجأ بعض المجتمعات إلى نظام الزيجات التصاهرية الممتدة ، فمثلا فى حالة عدم وجود أخت للمتوفاة يلزم الزوج بالزواج من أبنة عمها ، وفى حالة وفاة الزوج وعدم وجود أخ له تلزم الزوجة الأرملة بالزواج من ابن عمه ، وهذا هو نظام الزواج التصاهرى الممتد . وهذا النظام ليس شائعا كنظام الزواج بأخ الزوج أو أخت الزوجة ، ولكنه موجود فى عدد قليل محدود من المجتمعات . والمهم فى هذا النظام هو أن يكون البديل عن المتوفى من نفس الانتماء إلى الأسرة أو المعشر الذى كان ينتمى إليه المتوفى أو المتوفاة . ففى النظام الذى يكون الانتماء فيه لأسرة الأب أو النظام الأبوى نجد أن العمة يمكن أن تحل محل ابنة أخيها لأن كلتيهما تنتمى لأسرة الأب ، وفى النظام الأمى (أى الذى يكون الانتماء أو النسب فيه لأسرة الأم) يمكن أن تحل الخالة محل ابنة أخيها لأن كلتيهما تنتمى لأسرة الأم ، وفى النظام الأول يمكن أن يحل العم أو ابن العم محل الابن وفى النظام الثانى يمكن أن يحل الخال أو ابن الخال محل الابن لنفس الأسباب .

(هـ) ومن نظم زواج التصاهر كذلك ما يسود فى بعض المجتمعات ولا سيما عند بعض قبائل جزر البحر الكاريبى وفى بعض القبائل الأفريقية من وراثة الابن لزوجات أبيه المتوفى فيما

عدا أمه البيولوجية أو الدموية إذ بعد وفاة الوالد تصبح زوجاته زوجات لابنه يرثهن كما يرث أملاكه الأخرى ، وهذا النظام مباح فى بعض القبائل التى ذكرناها وهى القبائل التى تبيح تعدد الزوجات ولكنه ليس مباحا فى القبائل التى تحرم نظام تعدد الزوجات . والغرض من هذا النظام حفظ زوجات الأب فى داخل الأسرة أو العشيرة والابقاء على القرابات والمصاهرات التى تكونت بزواجهن من الأب .

بعض العادات المتبعة فى طريقة الزواج فى الشعوب المختلفة :

ونحن لا نستطيع التعرض للزواج وما يتعلق به من عادات فى المجتمعات المختلفة لأن هذا يستلزم مؤلفات ضخمة ، وحسبنا هنا أن نستعرض بعض العادات السائدة أو التى سادت عند بعض الشعوب ، متخذين منها أمثلة للتدليل على تباين هذه العادات ومفارقاتها :

فمعظم المجتمعات البدائية والقديمة تسير أو كانت تسير على نظام المهر ، أى أن يدفع العريس أو آله أو معشره مبلغا من المال للعروس أو آلها ، وقد يكون المهر نقدا أى بالنقود أو عينا أى أشياء وسلعا كرؤوس الأغنام والبقر والماشية والبذور والمحصولات الزراعية والفواكه ، وقد يكون أعمالا تؤدى لأهل العروس ... الخ . وفى بحث أجراه العلماء الانجليز هبهاوس وهويلر وجنزبرج ، وجد نظام المهر مطبقا فى ٣٠٣ من القبائل ، وذلك من بين ٤٤٣ قبيلة تناولها البحث . وفى بحث آخر أجراه الأستاذ مردوك يتبين أن نظام المهر وجد أو كان موجودا فى نصف الثقافات التى سادت وتسود العالم ، فنظام المهر شائع عند المجتمعات الأفريقية وفى أندونيسيا وهو شائع فى المناطق الأخرى . ونظام المهر كان سائدا فى معظم

المجتمعات القديمة ، كما أنه يكون شرطا من شروط الزواج الاسلامى ، وكان سائدا عند العبريين وهو قد ساد أو يسود عند معظم الشعوب التى تسير على نظام النسب الأبوى أى الانتماء للأب . ولقد اختلف العلماء فى السبب فى المهر ووجد فيه بعض العلماء أثرا من آثار نظام ساد فى العصور السحيقة كانت البنات فيه يبعن ويشترين . على كل حال دلت البحوث التى أجريت فى المجتمعات البدائية الحالية على أن المهر فى كثير من هذه المجتمعات يعنى ثمن المرأة بوصفها « منجبة للأطفال » وبوصفها السبيل لايجاد القرابة وتكوينها بين القبائل أو الأسر أو المعاشر . ولذلك يترجم بعض العلماء كلمة مهر بأنها تعنى « ثمن الأولاد » أى ثمن الأولاد الذين ينتظر أن تنجبهم المرأه ، وبعضهم يترجمها بأنها تعنى ثمن العروس ، ولكن يجب ألا يفهم من ذلك أن النساء فى تلك المجتمعات قد أصبحن رقيقا يبعن ويشترين ، ومع ذلك فالمهر تسيطر عليه فى تلك المجتمعات النزعة التجارية والاقتصادية لأن الرجل الذى أنجب خمس بنات وولدا تصبح حالته ماليا واقتصاديا خيرا من رجل آخر له خمسة أولاد وبنت واحدة .. لأن الأول يجد المهور تنهال عليه فتزيد ثروته والثانى يجد نفسه يدفع أمواله للآخرين للحصول على زوجات لأولاده . ولكن البنات لا يبعن فى سوق حرة كسلعة من السلع ، فالبنت تختار بالنسبة لعوامل الجمال والحب والنسب أو سطوة أسرتها . ويقدر المهر فى هذه المجتمعات وفق المركز الاقتصادى والاجتماعى لأسرة العريس مقاسا بمركز أسرة العروس ، وفى حالات قليلة فى المجتمعات البدائية تلعب الصفات الشخصية لكل من العريس والعروس دورا فى تقدير المهر . وفى معظم هذه المجتمعات يقاس احترام الزوجة ومكانتها بمقدار المهر الذى دفع لأسرتها ، ففى بعض قبائل افريقية الشرقية تتميز المرأة التى كان مهرها عشرين بقوة على المرأة التى كان مهرها عشر

بقرات ، وفى قبائل يوروك فى كاليفورنيا يقاس المركز الاجتماعى والمالى للشخص بالمهر الذى دفعه والده لوالدته عند زواجه منها .

ويعتقد العلماء أن هناك عوامل شتى تحدد قيمة المهر وتعد أساسا لوجوده ولكن أهم سبب لوجوده هو أن عقد الزواج يربط بين جماعتين ، فهو لا يربط فقط بين العريس والعروس ، بل يربط بين أسرتين برباط من القرابة . ومن هنا تأتى أهميته ، إذ لما كان هذا الرباط سيؤدى إلى ضم أسرة معينة إلى أسرة أخرى ولما كان لكل من الأسرتين مكانتها الاجتماعية التى ترتكز فى الغالب على العامل الاقتصادى والمالى نجد أن ثمن هذا الارتباط وهو المهر لابد أن يكون متناسبا مع تلك المكانة ومع ما يجلبه على العروسين وأسرتيهما من منافع اجتماعية . وهذه الملاحظة حقيقة واقعة بالنسبة للمجتمعات البدائية ، وهى الى حد كبير تصدق على المجتمعات الحديثة ، فالزواج فى معنى من معانيه ليس إلا ارتباطا بين أسرتين أو جماعتين ، يمثل العريس والعروس فيه أبرز جزء منه .

ولقد أجرى بعض العلماء بحوثا عن أساس فرض المهر فى المجتمعات البدائية وأجابت بعض القبائل بأنه ثمن تربية البنت وتنشئتها وبعضها أجاب ببساطة بأن الأسرة عندها « شىء » يريده العريس ، وعلى ذلك يجب على العريس أن يدفع ثمنه . وانتهى مردوك وكثير من العلماء إلى أنه كان فى المبدأ يعبر عن ثمن ما ستنجبه العروس من أطفال ينتمون إلى القبيلة ، ويدللون على ذلك بأنه عند كثير من القبائل ولا سيما عند زنوج أفريقية يسيرون على نظام حق الزوج فى ابدال زوجته بأختها بدون مهر ، وذلك فى حالة ما إذا كانت زوجته عاقرا لا تنجب أطفالا . كما وجد أن نظام المهر

يسود أكثر فى المجتمعات التى تسير على نظام الانتماء للأب أى النظام الذى ينتمى فيه الأطفال للأب دون الأم وهو نادر فى المجتمعات التى يكون فيها نسب الأطفال للأم . كما أنه يسود كذلك فى المجتمعات التى تنتقل فيها الزوجة إلى قبيلة الزوج وأسرته ويندر فى المجتمعات التى لا تقيم الزوجة فيها ولا أولادها مع أسرة الزوج إذ فى هذه الحالة لما كانت الزوجة والأولاد يقيمون بعيدا عن الأسرة فانهم عمليا فى حكم غير المنتمى للأسرة . ففى بحث أجراه مردوك على ١٣١ جماعة يسود لديها نظام المهر وجد أن ١١٣ منها تسير على نظام إقامة الزوجة والأولاد مع أسرة الزوج ، أما الثمانى عشرة جماعة الباقية فمنها أربع تسير على نظام اقامة الأولاد والزوجة مع أسرة الأم « الزوجة » وأربع عشرة لا يقيم الأولاد والزوجة فيها مع أسرة الأم ولا مع أسرة الأب . ويؤكد رالف لنتون هذه الحقيقة ببحثه عن قبائل فيزو ساكالا فا ، فى جزيرة مدغشقر ، وهى أن المهر ثمن إنجاب الأطفال أو هو ثمن حق الأسرة على الأولاد الذين تنجبهم الزوجة : ففى هذه القبائل وفى حالة طلاق الزوجة لا يحق لهذه الأخيرة أن تتزوج ثانية إلا بإذن من مطلقها (زوجها السابق) ، وهى تتزوج الزواج الثانى بلا مهر على أن يكون الأولاد الثلاثة الأول من الزواج الثانى من حق زوجها الأول ، لأنه هو الذى دفع مهرها لأسرتها . وهنا ترعى الزوجة الأولاد المنجبين من الزوج الثانى حتى الفطام ثم بعد ذلك تقوم هى وزوجها الثانى بإهداء الأولاد لأسرة الزوج الأول الذى يصبح أب هؤلاء الأولاد بلا شكليات ويصبحون أولاده . وعند قبائل بافندا فى جنوب أفريقية وكثير من القبائل الأخرى إذا كان المهر مقسطا (أى يدفع على أقساط) فإن الأولاد الذين ينجبهم الزوج من زوجته لا يتم انتماؤهم لأسرة الزوج الا بعد دفع الأقساط كلها كاملة . وعند قبائل داهومى بأفريقية الغربية ، إذا كانت الزوجة عاقرا أو لم تعد

تستطيع انجاب الأطفال فانها قد تدفع لزوجها مهر زوجة جديدة لتنجب له أطفالا .

وهنا نجد أن أطفال الزوجة الثانية ينادون زوجة أبيهم الأولى باسم « الوالد » أو الأب .. لأنهم ينظرون إليها على انها والدهم إذ هى إلى حد ما سبب وجودهم لأنها دفعت مهر والدتهم أو ثمن انجابهم ..

وفى الشعوب التى تسير على نظام المهر نجد المهر غاليا جدا إذ قورن بثروة الأسرة أو العشيرة فى المجتمعات البدائية الى حد الارهاق أحيانا ، ولكن التطور أدى إلى الحد من المغالاة فى المهور إلى أن أصبحت رمزية فى المجتمعات الحديثة . فمثلا من المعروف أن الشريعة الاسلامية تسير على نظام المهر كشرط من شروط الزواج ، وهو مبلغ يدفع نقدا أو عينا وقد يكون مقدما فى جزء ومؤجلا فى جزء آخر لبعد الطلاق أو الوفاة وقد يدفع مرة واحدة أو مقسطا .

ولكن المهر فى الدول الاسلامية المتطورة أصبح الآن رمزيا لا مغالاة فيه ، ومع ذلك فهو لا يزال مرتفعا عند كثير من القبائل وفى المجتمعات الريفية .

ولكن المهر لا يتمثل فقط فى مال يدفع نقدا أو عينا ، بل قد يتمثل فى عمل يؤديه العريس لأسرة العروس ، ولقد سادت هذه القاعدة عند العبرانيين القدامى . ويشير القرآن الكريم إلى ذلك التقليد عندما يذكر كيف أن موسى عليه السلام كان عليه أن يخدم عند شعيب من ٨ ـ ١٠ سنوات كمهر لزواجه من ابنته : (قال انى أريد أن أنكحك احدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج ، فإن أتممت عشرا فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ، ستجدنى إن

شاء الله من الصالحين . قال ذلك بينى وبينك ايما الأجلين قضيت فلا عدوان على ، والله على ما نقول وكيل) « سورة القصص الآيتان ٢٧ ، ٢٨ » .

وفى الكتاب المقدس اشتغل يعقوب سبع سنوات لكى يتزوج من راحيل ، وسبعا أخرى من أجل زواجه من ليح . وفى سيبريا عند بعض قبائل تشكتشى يقوم العريس بخدمة أهل العروس كمهر للزواج . ولقد أجرى بحث على عينة من المجتمعات فوجد أن من بين ٢٤١ نظاما ثلاثين فقط يطبق فيها نظام العمل بدلا من دفع المهر نقدا أو عينا . وهذا النظام نادرا ما يطبق فى المجتمعات التى تنتقل فيها الزوجة الى مقر اقامة زوجها وكثير من القبائل التى يسود فيها هذا النظام ، تعطى للعريس الحق فى ابدال العمل بدفع المهر وبعضها الآخر يجعل العمل اجباريا . وفى عدد قليل من المجتمعات وجد أن العمل عند أسرة العروس يظل مستمرا بلا نهاية أى أنه ليس محدودا بوقت معين ، فمثلا فى عدد من القبائل التى يقوم لديها نظام الصيد ، على الزوج أن يرسل جزء من صيده بصفة مستمرة الى أهل زوجته .

وكثير من العلماء يرى فى نظام العمل بديلا عن نظام سابق عليه وهو دفع المهر نقدا أو عينا ، ولكن ليس ثمة دليل على هذا الاعتقاد ، إذ نستطيع أن نتصور العكس وهو أن نظام دفع المهر هو البديل عن نظام سابق عليه وهو العمل لدى أسرة الزوجة .

وفى قليل من المجتمعات يسود نظام الزواج التبادلى بمعنى أن يتزوج فرد ما من أسرة معينة من آنسة من أسرة معينة من آنسة من أسرة أخرى على شرط أن يتزوج أخو هذه الآنسة أخته . وهذا النظام من شأنه أن يقوى الرابطة القرابية بين الأسرتين . وهذا

النظام من جهة أخرى يوفر تكاليف المهر الباهظة فى بعض المجتمعات ، وقد يكون وسيلة من وسائل كفاية الأسرة مؤونة دفع المهر الباهظ للأسرة الأخرى ، خصوصا وإن المهر يتمثل فى ثروة كاملة تدفع من أسرة العريس لأسرة العروس .

وهذا النظام سائد مثلا عند بعض قبائل الشوشون فى ايداهو التى تفضل هذا النوع من الزواج على غيره من الأنواع الأخرى . غير أن من معايب هذه الطريقة انها أحيانا غير عملية ، فقد لا يكون لدى الأسرة التى سيتزوج منها العريس رجل مناسب للزواج من أخته ، من ناحية السن مثلا .

ومن العادات السائدة عند بعض الشعوب الزواج عن طريق الخطف أو الأسر . ويعتقد عالم الانسان الكلاسيكى الاسكتلندى ماك لينان أن الزواج عن طريق الخطف أو الأسر كان الصورة الأولى للزيجات الانسانية ، ثم تطورت هذه الصورة فيما بعد إلى الصورة التى نراها اليوم فى المجتمعات البشرية . وما نجده فى المجتمعات البشرية المتطورة من صور رمزية لمحاكمة العريس ، أو اختبار شدة بأسه أو التغنى بميزات العريس وأسرته ومحاسن العروس وميزات أسرتها فى حفل الزواج ، أو اللعب بالعصا أو السيف فى تلك الحفلات ..

كل تلك المظاهر وأشباهها ليست الا بقايا تذكارية لنظام أسر الزوجة الذى كان سائدا فى العصور التاريخية السحيقة . ومن تلك المظاهر ما نجده الآن مثلا عند قبائل البوشمان : ففى يوم الزواج يجتمع الناس ليشتركوا فى حفل الزفاف ، ثم يجلسون فى حفل لتناول الطعام ، وفى أثناء الطعام يمسك العريس بعروسه .

وهذا العمل يكون اشارة ببدء معركة ، إذ يمسك أقارب العروس بعصيهم وينهالون ضربا على العريس ، ثم تقوم معركة بين الضيوف وبين أقارب العريس وأقارب العروس . فإذا استطاع العريس أن يظل قابضا على عروسه فانه ينجح فى زواجه وتصبح زوجته ، أما إذا خر تحت وقع اللكمات والضربات فانه يفقد عروسه إلى الأبد . وعند قبائل باهيما الافريقية ترتب لعبة « جذب الحبل » أو شده بين أقارب العريس وأقارب العروس وتنتهى المسابقة دائما بانتصار أقارب العريس ، وعندئذ يدفع بالعروس بعنف فى حظيرة حيث تقع على الأرض ، ثم يأتى أقارب العريس ليرفعوها ويدخلوها بعنف فى منزل الزوجية .. وفى المجتمعات الحديثة هناك آلاف من المظاهر التى تدل على العنف والشدة والتنافر بين أقارب العريس وأقارب العروس . ويرى بعض العلماء أن هذه المظاهر بقايا لنظام الخطف أو الأسر الذى كان يتبع قديما ، خصوصا وأن المرأة كانت قديما تؤسر فى الحروب وتقدم كهدية . ومع ذلك يذهب بعض العلماء ولا سيما أصحاب المذهب الوظيفى إلى تفسير تلك المظاهر الخشنة تفسيرا آخر .

ذلك أن تلك المظاهر فى رأيهم تدل على الحقد والحنق الشديد بين الأسرتين المتصاهرتين ، فالزواج رابطة بين أسرتين ، وهذا لا شك فيه ، ولكن هذا الارتباط يتم غالبا بقصد التقارب بين أسرتين متعارضتين أو متنازعتين وعلى ذلك فالأسر المتصاهرة تحركها المرارة بشكل لا شعورى . فأسرة العروس ترى دخول أجنبى إلى الأسرة ليأخذ منها ابنتها وربما ليصير عضوا بها مع ما يتبع تلك القرابة الجديدة من التزامات وكذلك الحال فى أسرة العريس التى ترى دخول بنت غريبة إلى الأسرة تكتسب عليهم

حقوقا وهذا فى حد ذاته يولد بشكل لا شعورى الحقد والكراهية فى نفوسهم .

ولكن مع ذلك فاننا لا نرى هذا التعليل مقنعا الاقناع الكافى ، ولا نراه يؤدى إلى استبعاد احتمال وجود الأسر كوسيلة للزواج فى كثير من المجتمعات القديمة وفى العصور الأولى السحيقة . ويرى بعض العلماء أن نظام الزواج عن طريق الأسر قد وجد ولكن كوسيلة اضافية أو كوسيلة ثانوية ، إذ عادة يلجأ الرجل المتزوج فى بعض المجتمعات ولا سيما هنود السهول الأمريكيون إلى أسر بنات من بعض القبائل ليتزوج بهن . وفى المجتمعات القديمة والبدائية يكون سبب خطف النساء وأسرهن سببا لحروب ومعارك لا تنتهى .

ومن العادات المنتشرة فى الزواج كذلك إرث الزوجات بعد وفاة الزوج وذلك كما سبق أن بينا ، والجدير بالذكر هنا أن قبائل بالفك وبورا فى شمال نيجيريا يسمحون للرجل أن يرث زوجات جده اللاتى يصبحن زوجاته .

وثمة نظام الزواج بالتبنى وهو سائد فى بعض جهات اليابان وأندونيسيا ، ففى هذه الجهات إذا حدث ولم تنجب أسرة من الأسر ذكورا فانها تتبنى زوج ابنتها ليصير ابنا لها ، والأولاد فى هذه الحالة يصبحون منتمين لأسرة الأم . وثمة تقليد آخر فى بعض المجتمعات وهو ما يسمى باسم الزواج التخيلى أو التصورى والزواج بالتبنى هو نوع من الزواج التخيلى ، إذ يتخيل زوج البنت فيه على أنه ابن للأسرة وأولاده يتخيلون على انهم أولاد الأسرة .

ولكن عند قبائل النوير فى أفريقية نجد تقاليد واضحة للزواج التخيلى . فانجاب الأطفال ذو أهمية بالغة عند هذه القبائل لأن انجاب الأطفال يبقى اسم الأسرة « أخضر » فإذا حدث ومات ولد

أو رجل من القبيلة دون أن ينجب ، عمد أحد أخوته إلى الزواج من فتاة باسمه وينجب منها أطفالا يسمون باسم الأخ المتوفى الذى يعد فى نظر القبيلة الزوج الحقيقى ، بينما الأخ الذى تزوج بالتخيل لا يعد زوجا فهو فقط قائم مقام الزوج الحقيقى وهو الأخ المتوفى .

وعند النوير أيضا تنتقل ألقاب الرئاسة والمكانة الاجتماعية من الرجل إلى زوج ابنته ، ثم إلى حفيده من ابنته ، فهى لا تنتقل من الأب لابنه لحفيده من ابنه . فإذا حدث ولم ينجب صاحب اللقب اناثا ، فإن الأفراد الذكور الراغبين فى الحصول على اللقب يتقدمون طالبين زواجا تخيليا من أحد أبنائه الذكور ، وتتم مراسم الزواج كالمعتاد ، وحينئذ يكون للزوج المتخيل أن يرث اللقب .

والزواج المتخيل هنا يتم بين رجلين ذكرين .. ولكن إذا كان صاحب اللقب لم ينجب خلفا كلية لا ذكورا ولا إناثا ، فإن الراغب فى اللقب فى هذه الحالة يتقدم ليعقد زواجا تخيليا بينه وبين جزء من أجزاء جسم صاحب اللقب كفخذه أو ذراعه ، وبعد هذا « الزواج » ينتقل اللقب إلى العريس الجديد .. وعند النوير أيضا (وإلى حد ما عند قبائل داهومى) إذا لم ينجب الزوج أطفالا ومات وكانت زوجته فى سن لا تسمح لها بالانجاب ، تبيع الزوجة الأرمل ماشيتها وتزوج بثمنها رجلا لامرأة على أن يسمى الأولاد الذين ينجبون باسمها واسم زوجها .

وفى تقليد آخر عند القبائل إذا مات الزوج وكبرت الزوجة وليس لها قريب يرثها فانها « تتزوج » بامرأة شابة باسم زوجها (أى تقوم مقام زوجها كزوج) ثم تدعو رجلا لكى يخالط الزوجة الشابة جنسيا ، ويسمى الأطفال الذين يأتون ثمرة لهذه المخالطة باسم الزوج المتوفى ويرثون . ومن العادات السائدة فى كثير من

المجتمعات كذلك عادة الفرار ، أى فرار البنت والولد من أسرتيهما لكى يتزوجها بعيدا عن الأسرتين .

ذلك أننا الآن فى المجتمعات الحديثة نقيم وزنا كبيرا للعواطف والانفعالات ولا سيما عاطفة الحب ، فالرجل يختار عروسه التى يجد تجاذبا بينها وبينه . ولكن فى معظم المجتمعات القديمة والبدائية تتجاهل معظم النظم عاطفة الحب بين الذكور والاناث ، إذ يتم الزواج وفقا لتقاليد قائمة على أسس اقتصادية وسياسية ، ونادرا ما تكون قائمة على أسس العواطف .

ومع ذلك نجد فى المجتمعات البدائية أحيانا أنواعا من الحب الجارف الذى يسيطر على بعض الشبان والشابات ويربط بين قلبى الفتى والفتاة برباط لا تقوى التقاليد على قطعه وتمزيقه . ولكن لما كانت التقاليد تقف سدا منيعا دون ذلك الحب فان العاشقين يضطرات للفرار للزواج بعيدا عن الأسرة أو العشيرة . وفرار العاشقين ظاهرة توجد فى جميع المجتمعات البشرية قديمها وحديثها ، بدئيا ومتطورها . وكثير من المجتمعات البدائية لا توافق على مباركة الزواج الذى تم بالفرار وبعضها تباركه بعد أن يتم ، ففى قبائل تشيين تبارك الأسرة زواج ابنتها الفارة إذا لم يكن أخوها أو ولى أمرها قد وعد آخر بالزواج منها .

وفى كثير من القبائل الاسترالية أصبح الزواج بالفرار من الأسرة قاعدة سائدة ، بل أصبح فى بعضها الطريقة الوحيدة للزواج وذلك كما هى الحال فى قبائل كورنى ، ويعزى ذلك إلى أن قواعد الزواج فى تلك القبائل معقدة بل تجد الفتاة أو الفتى نفسه ازاء حواجز لا تسمح له بالزواج الا بعدد ضئيل جدا من الفتيات ، وازاء هذه القواعد الصارمة يضطر الشبان والشابات الى الخروج

عليها وكسرها بالفرار والزواج بعيدا عن القبيلة فى ملجأ يحميهم من انتقام أهليهم .

مدارس علم الانسان وتفسيرها للنظم العائلية والقرابة :

ثمة نظريات كثيرة فسر بها العلماء الظواهر العائلية فى المجتمعات البدائية :

(١) أولى تلك النظريات هى النظرية التقليدية أو نظرية الأسرة الثنائية الأبوية . ذلك أن معظم العلماء حتى منتصف القرن التاسع عشر كانوا متفقين على النظر للأسرة الأحادية الزوج والزوجة والأبوية النسب على انها « الخلية الاجتماعية » الأصلية ، وما عداها من الصور تعد صورا اضافية ، ويقول أوجست كونت أن الأسرة الأبوية هى الخلية الاجتماعية العالمية . وهذا الاعتقاد كان مستندا إلى آراء أرسطو ، ثم إلى ما ورد فى القانون الرومانى حيث الأسرة ثنائية أبوية ، ثم ما ورد فى الكتاب المقدس . ولقد دافع عن هذه الفكرة وهى اعتبار الأسرة الأبوية الثنائية الوحدة الاجتماعية الأساسية فى جميع جهات العالم ، لى بلاى Le Play الذى قال « إن الأسرة منظورا إليها من مبدئها الأساسى ، هى مبدأ لا يتغير » ولكن شكلها مع ذلك خاضع للتغيير ، ثم يقسم لى بلاى أشكال الأسرة إلى :

(أ) الأسرة الأبوية Patriarcat حيث يعيش الأولاد المتزوجين مع والدهم الذى يدير وحده شئون الأسرة وثروتها التى تظل واحدة بلا انقسام والتى بعد موته إلى ابنه الأكبر .

(ب) الأسرة غير المستقرة حيث يترك الأسرة كل ابن من أبنائها عندما يشب ويكبر لكى ينشىء أسرة مستقلة به ، وعند وفاة الوالد توزع ثروة الأسرة على أبنائه .

(جـ) وثمة نوع ثالث متوسط بين النوعين السابقين وهو الأسرة الأصلية وفى هذا النوع يترك الأولاد الأسرة عندما يكبرون لكى يكونوا أسرا مستقلة كما هى الحال فى النوع الأول ، ولكن ثروة الأسرة تنتقل بكاملها بعد وفاة الوالد إلى ابن واحد من أبنائه يعينه وفق طرق مختلفة تختلف باختلاف المجتمعات والعصور ، وهذا الابن المختار يعد خليفة لأبيه وحافظا لتقاليد الأسرة ، ولقد استند أعضاء هذه المدرسة على بعض الوقائع الاتنولوجية لتأييد مذهبهم ، فمن يقولون أن نظام الأسرة الثنائية سائد عند بعض مجتمعات بدائية مثل قبائل الفدة وذلك يدل على أنه النظام الأصلى للأسرة وليس نظاما متطورا عن نظم أخرى سبقته ، فهو اذن النظام الأصلى وما عداه صور متطورة منه ، ولقد تبنت أفكار هذه المدرسة ، مدرسة فينا للدراسات الانسانية وهى مدرسة شيدت وكبرز التى استندت إلى أن نظام الأسرة الثنائية يسود عند مجتمعات بدائية جدا مثل أقزام الفلبين ، وقبائل سمانج واندمان وكثير من القبائل الأفريقية السوداء والبوشمان وفيوجا . وهنا ـ فى رأيهم ـ تسود الأسرة الثنائية مع حرية تامة فى التعاقد على الزواج وتحريم الزنا ومساواة الرجل بالمرأة ، يضاف إلى ذلك أن نظام الأسرة عامة موجود فى كل بلاد العالم بينما « الدولة » مثلا لا توجد فى المجتمعات البدائية الا كصورة باهتة أحيانا وفى معظمها لا توجد مقوماتها الأساسية .

ويقول أعضاء مدرسة فينا ، إن هذا النظام كان سائدا فى المجتمعات البدائية النقية ، ثم حدث أن تغير فى بعض هذه المجتمعات التى تحضرت ، وفقدت المرأة فيها حريتها واستقلالها عندما أصبحت القبيلة لا الأسرة هى الوحدة ، وذلك يلاحظ فى كثير من المجتمعات التى كانت تعيش على الصيد مثلا .

فالنظام الثنائى الأصيل للأسرة فى المجتمعات البدائية النقيه قد تحول وفسد بسبب عوامل الحضارات الأولى ، التى أدت إلى افساد الأخلاق وظهور صور أخرى للأسرة بجانب الصورة الأصلية . ولقد أيد كل من لوى وجولد نفيزر وهما من أعضاء المدرسة الثقافية الأمريكية المبدأ الأساسى للمدرسة التقليدية وهى أن الأسرة الثنائية هى الوحدة العالمية فى جميع المجتمعات البشرية ولقد وجه كثير من النقد للمدرسة التقليدية لأن تقريرها أن المجتمعات التى ذكرت كالفدا وغيرها تعد حقا مجتمعات « بدائيه » تمثل الحياة البدائية الأصلية لا دليل عليه ولا برهان . ثم أن هذه المدرسة استندت فى أحيان كثيرة إلى العوامل الاقتصادية لتفسير ظاهرة تحول المجتمعات من النظام الثنائى الأصيل ، فبعض أعضائها يدعى أن نظام الصيد قد أدى إلى فصل الرجل عن المرأة مثلا ، وبعضهم يربط بين الزراعة والاستقرار الذى أدت اليه فى المجتمعات البدائية وظهور الأسرة الأمية لأن الزراعة عندما ظهرت بجانب الرعى والصيد فى المجبمعات البشرية قد أكسبت المرأة أهمية ، فهى التى كانت تشرف على الأولاد وتربيتهم إلى جانب انشغالها بالزراعة بينما الزوج كان غائبا لانشغاله برعى الأغنام والماشية التى يسير بها وراء الكلأ ، وكانت مدة غيابه تطول بالشهور .

والواقع أن ربط الظواهر الاجتماعية بالظواهر الاقتصادية وحدها دون غيرها هو الآخر قول لا برهان عليه إذ ربما اكتسبت المرأة أهمية فى الشعوب عند بدء معرفتها بالزراعة لعوامل دينية لا اقتصادية ، إذ كانت المرأة والأرض فى رأى بعض المجتمعات تعدان شبيهتين وقريبتين لأن كلا منهما تلد وتنجب فالمرأة تنجب الأولاد والأرض « تنجب النبات » فالمرأة كانت عنصر مقدسا وكانت خصوبة الأرض مرتبطة بخصوبتها هى ، عن طريق نظرية المشاركة إذ الأرض والمرأة كل منهما ليست الا صورة مختلفة عن الأخرى ولكنهما تمثلان شيئا واحدا .

ثانيا : النظرية التطورية :

اتجه كثير من العلماء فى نظرياتهم عن القرابة والعائلة اتجاها تطوريا وكان لويس مورجان(*) من أهم العلماء الذين ساروا فى هذا الاتجاه . اهتم مورجان اهتماما خاصا بموضوع تطور

---

* لويس مورجان L.H. Morgan (١٨١٨ ـ ١٨٨١ م) محامى امريكى وعالم انثروبولوجى وضع من ضمن مسلمات اخرى كثيرة ـ مالا يقل عن خمسة عشر مرحلة لتطوير الزواج والعائلة تبدأ بالإباحية الجنسية وتنتهى بالزواج المونوجامى monogamy وشكل العائلة المعروف فى الحضارة الغربية . وقد أدخلت هذه الخطة الوهمية إلى النظريات الماركسية فى روسيا الشيوعية عن طريق إنجلز وأمتزجت بهذه النظريات والتعاليم إمتزاجا شديداً . يرجع إلى مورجان فضل إدخال الدراسة المقارنة لنظم القرابة لأول مرة إلى ميدان الانثروبولوجيا ومنذ ذلك الوقت أصبحت هذه الدراسة تؤلف جزاءا جوهريا فى البحث الانثروبولوجى . وهو صاحب فكرة أن ينظم القرابة التصنيفية التى يطلق الرجل بمقتضاها كلمة « أب » على كل اقاربه الذكور من جيل والده . وكلمة « أم » على كل قريباته الإناث من جيل والدته وكلمة اخ او اخت على ابنائهم ، ثم يطلق كلمة « ابن » أو « ابنه » على ذرية هؤلاء الأخيرين ، دليل هو أيضا على إباحة وشيوعية العلاقات الجنسية فى تلك المجتمعات فى وقت من الأوقات .

أشكال العائلة باعتبارها الأساس الأول الذى تقوم عليه بقية النظم الاجتماعية وربط بين تطور أشكال العائلة وتطور طرق كسب العيش .

وتتلخص نظرية مورجان فى أنه كان يرى المجتمع البشرى فى البداية عبارة عن زمرة اجتماعية بسيطة تعيش فى حالة بدائية لا تحكمها ضوابط أو قوانين أو قواعد خلقية ، وبذلك كان أفرادها يحيون حياة أباحية متحررة دون أن يكون ثمة ضابط ينظم علاقاتهم الجنسية . ويسمى مورجان هذه المرحلة بمرحلة الاباحية الجنسية Promiscuity حيث كان لكل فرد فى المجتمع أن يتصل بأى امرأة يشاء بغير قيود . وقد خضعت هذه المرحلة البدائية لكثير من عوامل التغير بتقدم الانسانية ونشأ عن هذه التغيرات ظهور أشكال القرابة المختلفة فى مراحل تالية من التاريخ بحيث كان كل شكل من هذه الأشكال يؤدى إلى الشكل التالى الأكثر منه تقدما ورقيا . وأول شكل من أشكال العائلة هو ما يسميه مورجان باسم « العائلة الدموية Consanguine Family » التى تقوم على الزواج بين الأخوة والأخوات داخل الجماعة الواحدة . ومع أنه لا يوجد ما يدل اطلاقا على شيوع هذا الشكل فى العالم وإن الحالات المعروفة هى مجرد حالات فردية لها أسبابها الخاصة مثل زواج الأخوة والأخوات فى العائلات الملكية ، فإن مورجان اعتمد فى المحل الأول فى القول بوجود هذه المرحلة على نظام القرابة الشائع فى جزر هاواى ، وهو نظام أكثر بساطة من معظم النظم المعروفة لدى القبائل البدائية الأخرى . فالمعروف أن الغالبية العظمى من القبائل البدائية تميز تمييزا قاطعا بين الأقارب عن طريق الأب والأقارب عن طريق الأم وتتبع ازاء كل فريق منهما أنماطا سلوكية متميزة . أما سكان هاواى فلم يكونوا يميزون بين الفئتين وانما كانوا يستخدمون نوعا

واحدا من مصطلحات القرابة لهم جميعا بحيث يطلقون نفس المصطلح القرابى على جميع أفراد الجيل الواحد بغض النظر عن درجة القرابة الفعلية . ثم أتت بعد ذلك مرحلة ما يعرف باسم « زواج الجماعة group marriage » وتتميز بأن الزواج كان يتم بين جماعة الأخوة وعدد من النساء لا يشترط أن يكن أخوات ، أو على العكس من ذلك بين جماعة الأخوات وعدد من الرجال الذين لا يشترط أن يكونوا أخوة ، وكثيرا ما كانت هذه العائلة تظهر فى كتابات مورجان باسم « العائلة البونالويه » (نسبة إلى علاقة البونالوا Punalua فى جزر هاواى) وتعتبر هذه شكل أكثر تقدما من العائلة الدموية ، وأكثر منها رقيا وتهذيبا ، وقد أدى هذا الشكل من أشكال الزواج والعائلة فى مرحلة تالية إلى ظهور الشكلين الأساسيين اللذين نجدهما حتى الآن من أشكال الزواج التعددى Palyandry وهما تعدد الزوجات Polygyny الذى يشيع فى عدد كبير جدا من المجتمعات البشرية وفيه يجمع الرجل بين أكثر من زوجة واحدة فى وقت واحد ، وتعدد الأزواج Polyandry الذى يوجد فى عدد قليل من القبائل والجماعات القبلية المنزوية وفيه تجمع المرأة بين أكثر من زوج واحد فى وقت واحد ، والأغلب أن يكون الأزواج أخوة وأخيرا جدا ظهر شكل الزواج الذى يعتبره مورجان أرقى الأشكال إذ يكتفى فيه الرجل بزوجة واحدة بحيث يعيشان معا دائما كما هو الحال فى المجتمع المتمدين (المجتمع الغربى فى نظره) ولهذا فهو شكل حديث يرتبط بالحضارة الغربية الراقية ، ويطلق عليه مورجان اسم الزواج الأحادى أو الموناجامى .

وواضح أن مورجان يقيم نظريته على فكرة مسبقة وهى أنه كلما اتسع نطاق العلاقات الجنسية الشرعية التى يدخل فيها الشخص الواحد فى وقت واحد كلما كان ذلك دليل على تأخر هذا

الشكل من أشكال العلاقة الجنسية فى سلم التطور وعلامة على أنها ظهرت فى مرحلة سابقة من مراحل تاريخ الانسانية . ومن هذه الفكرة المسبقة التى تجدها فى كتابات عدد كبير من علماء القرن التاسع عشر أفلح مورجان فى اقامة نظريته التى تستند على نسق فكرى منهجى محكم أكثر مما تقوم على الشواهد والقرائن والأدلة اليقينية ، وذلك على الرغم من أن مورجان بذل جهودا كبيرة فى جمع الوقائع والمعلومات بشكل لم يتوفر فى كتابات غيره من العلماء المعاصرين له .

ولم تكن نظرية مورجان هى النظرية الوحيدة فى هذا الصدد ، فقد كانت هناك نظريات لم تكن تقل تماسكا من الناحية المنطقية الصورية على الأقل ، وإن لم يقدر لهذه النظريات أن تنتشر مثل نظرية مورجان لسبب أو لآخر ومع أن هذه النظريات تختلف فيما بينها فى بعض التفاصيل المتعلقة بالمعلومات التى يستشهد بها أصحابها ، فانها تتفق فيما بينها حول طبيعة المبدأ الذى تقوم عليه وهو مرور الانسانية بعدد من المراحل التى تتميز بأشكال معينة من الزواج والعائلة والقرابة ، بل وتتفق إلى حد كبير أيضا فى خصائص بعض هذه المراحل وبخاصة المراحل الأكثر تقدما وتطورا .

وتعتبر نظرية باخوفن(*) المعروفة باسم نظرية « حق الأم » من أهم هذه النظريات . وقد لعبت دورا هاما فى توجيه الفكر الاجتماعى فى القرن التاسع عشر وجهة معينة بالذات حين افترضت

---

* كان باخوفن (١٨١٥ ـ ١٨٨٧) يشتغل أصلاً بالمحاماة فى سويسرا ، وكان يهتم بالإضافة إلى ذلك بدراسة الأساطير واللغويات ، ثم إمتد إهتمامه إلى الأثنوجرافيا ، (وهى دراسة تفصيلية لاية حضارة من الحضارات) واستفاد من هذا كله فى تأليف كتابه عن « حق الأم » الذى ظهر فى عام ١٨٦١ وابرز فيه فكرة الإنحدار من الام والانتساب إليها . فالكتاب ملىء بالإشارات إلى الميثولوجيا القديمة والآداب اليونانية واللاتينية .

أن الشكل الأول الطبيعى للعائلة هو العائلة الأموية وأن نسق القرابة عن طريق النساء كان أسبق فى الظهور على نسق القرابة الأبوى نظرا لانتساب الابناء إلى أمهاتهم ، مما أضفى على المرأة مكانة اجتماعية واقتصادية وسياسية أعلى بكثير من مكانة ومركز الرجل . وقد استند باخوفن فى نظريته عن سبق الانتماء إلى الأم إلى أن طبيعة الأشياء تحتم ذلك . فالقانون الطبيعى يقضى بأهمية الأم بينما لم تظهر سيطرة الأب وحقوقه إلا بعد ذلك بكثير ، ذلك أن الانسانية فى بدايتها تحتاج إلى كثير من الرعاية والعناية وهو ما يمكن للمرأة توفيره من دون الرجل ، كما أن المرأة بطبيعتها أقدر من الرجل على توفير السلام وتحقيق المحبة وبذر بذور الخير . ولكن إلى جانب هذه الآراء الخاصة أو الشخصية يستشهد باخوفن فى التدليل على صحة نظريته بكثير من الشواهد والأدلة التى يستمدها على الخصوص من العصور الكلاسيكية . وكذلك من بعض المجتمعات البدائية التى كانت معروفة فى ذلك الحين . ويلاحظ باخوفن أن كثيرا من الأساطير القديمة تشير إلى المكانة العالية التى تتمتع بها المرأة فى العصور القديمة وفسر ذلك بأن هذه الأساطير تعكس فى الواقع النظام الأموى الذى كان سائدا فى تلك الأحقاب السحيقة . وعلى أية حال فان كثيرا من المجتمعات البدائية وبخاصة فى افريقية لا تزال تعترف للآن بنظام الانتساب إلى الأم ، وهذه تمثل فى رأيه ورأى العلماء التطوريين على العموم مرحلة سابقة قديمة من تطور المجتمع البشرى . فكان الأوضاع السائدة اذن فى المجتمعات البدائية والكلاسيكية على السواء (وهى تمثل فى رأى العلماء التطوريين مرحلة دنيا سابقة فى تطور الحياة الاجتماعية) تؤيد أسبقية سيطرة الأم على الأب فى الزمن بيد أن باخوفن كان يرى رغم هذا كله أن « حق الأم » وسيطرتها ومركزها العالى الممتاز فى المجتمع لم يكن فى واقع الأمر هو المرحلة الأولى فى تاريخ البشرية

وتطور النسق القرابى ، وانما سبقتها مرحلة أخرى هى مرحلة التحرر الجنسى المطلق أو الاباحية الجنسية ، بعدها ثارت ثائرة النساء فى مرحلة تالية من تطور المجتمع البشرى على ذلك الوضع المهين ، وكانت هذه الثورة ايذانا بظهور الزواج كنظام اجتماعى ينظم العلاقات الجنسية بين الرجل والمرأة . ولقد كان من الطبيعى أن تتمسك المرأة ـ الثائرة على الأوضاع القديمة ـ بالسلطة والسيطرة فى يدها وظهر بذلك « حق الأم » ثم سار النظام فى طريقة التطورى وترتب على ذلك ظهور أشكال جديدة مختلفة هى الأصل فيما نراه الآن من اختلاف فى نظم القرابة والزواج والعائلة ، ذلك أن المرأة فقدت سلطاتها وسيطرتها فى بعض المجتمعات فيما يتعلق بشئون العائلة بينما فقدت مكانتها السياسية فى مجتمعات أخرى ، وأدى ذلك على العموم الى ظهور الانتساب إلى الأب والاعتراف بالقرابة فى خط الذكور وسيطرة الرجل فى شئون السياسة والاقتصاد .

والظاهر أن فكرة شيوع الاباحية الجنسية أو الشيوعية الجنسية فى بداية ظهور المجتمع البشرى وما ترتب عليها من ظهور الانتساب إلى الأم والقرابة فى خط النساء كنتيجة طبيعية لذلك قبل أن ينتقل المجتمع إلى الاعتراف بالقرابة فى خط الذكور كانت تلقى كثيرا من التأييد من علماء الاجتماع والانثروبولوجيا فى ذلك الحين ، وكانت النظرية التطورية تفترض وجود مراحل محددة بدقة يمر فيها النظام الاجتماعى الواحد بحيث يتخذ شكلا معينا بالذات فى كل مرحلة من مراحل تطوره وبحيث يرتكز كل شكل منها على الأشكال التى سبقته فى الظهور ويمهد الطريق لظهور شكل تال أكثر منه تطورا . وتصدق هذه المراحل التطورية فى نظر علماء القرن التاسع عشر على المجتمع البشرى برمته وعلى كل مجتمع على حدة .

واختلاف النظريات التطورية فى تحديد هذه المراحل وأشكال الزواج والقرابة وترتيبها دليل على أن هذه النظريات كانت تعتمد فى المحل الأول على التفكير النظرى المجرد ، فهى جهود شخصية تعكس وجهة نظر أصحابها قبل كل شىء مع محاولة تدعيم هذه الآراء ببعض القرائن والأدلة التى كثيرا ما كان يساء فهمها وتأويلها كما هو الحال فى اعتبار استخدام كلمة واحدة للأب والأعمام دليلا على اشتراك الأخوة فى زواج امرأة واحدة وهى فكرة أثبتت المعلومات الانثوجرافية التى توفرت فيما بعد عدم صحتها .

ولم تسلم النظرية التطورية وبخاصة آراء مورجان من النقد والتجريح . ومعظم الانتقادات التى وجهت إليهاقامت على أساس اخفاقها فى الاستعانة بالحقائق والوقائع اليقينية فى التدليل على صحة وجود تلك المراحل التطورية بالفعل وبخاصة المراحل المبكرة . فليس هناك ما يدل بشكل قاطع على وجود مرحلة الاباحة أو الشيوعية الجنسية التى قال بها هؤلاء العلماء والتى قبلها انجلز Engels بعد ذلك . فهذه مرحلة افتراضية بحتة لجأ اليها العلماء التطوريون لاستكمال النسق الذهنى النظرى بحيث تبدو عملية التطور من البسيط إلى المعقد عملية متكاملة ، وهذا نفسه يصدق إلى حد كبير على ما يسميه مورجان بزواج الجماعة .

ثالثا : النظرية الاقتصادية :

وهى النظرية التى ربط أعضاؤها بين تطور صور الأسرة من جهة وتطور الصور الاقتصادية السائدة فى المجتمعات من جهة أخرى .

ولقد سبق أن بينا كيف ربط كثير من أعضاء المدرسة التقليدية بين شكل الأسرة والعوامل الاقتصادية ، ولكن من أهم ممثلى هذه المدرسة هو أرنست جروس E.Grosse عالم الانسان الألمانى (١٨٦٢ ـ ١٩٢٧) الذى عرض فى كتابه الشهير « أشكال الأسرة والأشكال الاقتصادية » سنة ١٨٩٦ نظريته عن العلاقة بين تغير النظم الاقتصادية وتغير النظم العائلية : فهو يفرق بين ثلاثة أنواع من الأسرة :

(أ) الأسرة بالمعنى الضيق وهى التى تتكون من الأب والأم وأولادهما .

(ب) الأسرة بمعناها الواسع وهى التى يعيش فيها الأجداد والأباء والأبناء والأحفاد وزوجاتهم فى حياة عائلية واحدة .

(جـ) العشيرة وهى جماعة يرتبط أفرادها برباط دموى أو رباط الدم . ثم يفرق بين أشكال ثلاثة من النظم الاقتصادية التى تسود الشعوب البدائية . إذ ثمة شعوب يسودها نظام الصيد وشعوب يسودها الرعى وأخيرا شعوب تسودها الزراعة ، ثم يقسم هذه الأشكال الى أشكال فرعية كما يلى :

١ ـ ففى المجتمعات التى يسود فيها نظام الصيد البدائى مثل مجتمعات البوشمان والفدة والاسكيمو .... وهى المجتمعات التى يطارد الأفراد فيها حيوانات الصيد فى مساحات شاسعة ويعيشون فى جماعات مبعثرة هنا وهناك يسود نظام الأسرة بمعناها الضيق كما تكون هذه الأسرة أبوية وفى معظم الأحيان تكون الأسرة هنا أحادية الزوج والزوجة . وإذا وجد نظام العشيرة فى تلك المجتمعات فإن الرابطة التى تربط

أفرادها تكون واهية وغير متسقة مع الظروف الاقتصادية السائدة .

٢ ـ وفى المجتمعات التى يسود فيها نظام الصيد المتطور كما هى الحال عند القبائل التى تسكن الشمال الغربى لأمريكا الشمالية والتى عندها أراض غنية بالمراعى ومحدودة فى مساحتها نجد سيادة النظام الأبوى ، ولكن الأسرة تكون تابعة للعشيرة وتحت اشرافها وقد يصل عدد أفراد العشيرة الى عشرة آلاف فرد .

٣ ـ وفى المجتمعات التى يسودها نظام الرعى كما هى الحال عند المغول وقبائل التبت وبعض المناطق العربية تزداد سلطة الرجل وتزداد أهمية النظام الأبوى ، وأهمية الأسرة ولا يكون للعشيرة أهمية ولا يبرز دورها الا فى حالات الحرب بين القبائل .

٤ ـ وفى المجتمعات التى يسود فيها نظام الزراعة البدائى كما هى الحال عند قبائل الملايو وميلانيزيا والهنود الأمريكيين ، نجد سيادة نظام العشيرة بسبب عدم الاستقرار وبسبب ارتحال الرجال وراء الكلأ للرعى وبقاء النساء للعمل فى الزراعة مما يؤدى إلى أن تفقد الأسرة أهميتها وتنقل الأهمية للعشيرة التى تبتلعها والقرابة هنا قد تكون ذكرية أو أنثية (قرابة رحم) .

٥ ـ وأخيرا فى المجتمعات التى يسود فيها نظام الزراعة المتطورة حيث نجدها تكون الأساس الرئيسى للنشاط الاقتصادى بجانب أوجه أخرى تكميلية للنشاط الاقتصادى كالتجارة والصناعة كما كانت الحال عند الرومان واليونان والسلافيين والجرمان والصينين واليابانيين والهندوك القدامى ، نجد

سيادة نظام الأسرة بمعناها الواسع وانحسار أهمية العشيرة وسيادة النظام الأبوى .

ولقد وجدت هذه النظرية فى السنوات الثلاثين الأخيرة تأييدا قويا من بريفولت Briffault الذى ربط ربطا تاما بين الأسرة وشكلها من جهة والنظم الاقتصادية من جهة أخرى ، بل بين أن العواطف العائلية تختلف وفقا لنظام الملكية القائم فى المجتمع وما يتعلق به من قواعد الميراث واستنتج بريفولت قوانينه من تحليله لنظام الملكية والروابط العائلية فى كل من انجلترا وفرنسا وانتهى من تحليله إلى أن نظام الملكية الفرنسى يجعل الأسرة الفرنسية قائمة على نوع من التضامن الرائع بين أفرادها ، بينما نظام الملكية الانجليزية والميراث الانجليزى يجعل الخضوع والاحترام للسلطة الأبوية الهدف المثالى .

تلك هى النظرية الاقتصادية ، وما من شك فى أن الظروف الاقتصادية تلعب دوراً لا يمكن انكاره فى تشكيل النظم الاجتماعية ومن بينها نظم الأسرة ولكن التأثير الذى ذكره أصحاب هذه النظرية ليس هو التأثير الصحيح للعوامل الاقتصادية . فكما ذكر ليفى شتروس إذا كانت الأسرة الاحادية الزوجين بمعناها الضيق توجد فى المجتمعات البدائية ذات المستويات الاقتصادية المتأخرة فان مثل تلك الأسرة ليست أسرة احادية بمعنى الكلمة لأن ظروف الحياة المعيشية اليومية القاسية هى التى تحول بين الأفراد وبين اتجاههم الطبيعى نحو نظام تعدد الزوجات ، أو « احتكار عدة رجال وقلة من الذكور للنساء » .

ثم أن أميل دوركايم وغيره من العلماء قد بينوا كيف أن

نماذج عائلية متشابهة توجد فى نفس الآن فى مجتمعين أو أكثر مختلفة فيما بينها اختلافا تاما فيما يتعلق بنظمها ومستوياتها الاقتصادية ، فمثلا يوجد نظام الانتساب للأم فى كثير من المجتمعات الاسترالية التى تعد أكثر المجتمعات بدائية وهى التى تشتغل بنظام الصيد ، مما يقطع بأن نظام الانتساب للأم ليس مرتبطا بظهور نظام الزراعة فى المجتمعات كما ذهب إلى ذلك كثير من أصحاب النظرية الاقتصادية وعلى رأسهم كونوف عالم الانسان الألمانى (١٨٦٢ ـ ١٩٣٦) الذى عرض رأيه فى كتابه « فى تطوير الزواج والأسرة » سنة ١٩٣٥ .

٤ ـ أما النظرية الرابعة فهى المسماة بالنظرية المثالية Idealistic أو الدينية وهذه النظرية تربط بين نظم الأسرة وأشكالها من جهة والمبادىء الدينية والأخلاقية السائدة فى المجتمع من جهة أخرى . وثمة كثير من العلماء الذين ربطوا بين شكل الأسرة والمعتقدات الدينية السائدة فى المجتمعات ومن بينهم إلى حد ما باخوفن السويسرى ومورجان الأمريكى ، ولكن كولر الألمانى J.Koehler يعد على رأس هؤلاء العلماء ، ففى كتابه « فى تطور الزواج » سنة ١٨٩٧ يحلل بعض صور الزواج والقرابة فى قبائل أوماها وشوكتا مبينا كيف أن هذه الصور مبنية على المعتقدات التوتمية . « فالحيوان الذى يستخدم توتما فى العشيرة أو الأسرة يقدس بوصفه جدأ أول للجماعة ، وكل أعضاء العشيرة يعدون منحدرين عن أصل واحد وهو التوتم ، ومكونين من نفس اللحم والدم ، أو بمعنى آخر هم يعدون أقارب » .

ونتيجة لذلك ـ فيما يرى كولر ـ كان من الضرورى أن تكون الأسرة البدائية أسرة أمية (أى تنتسب للأم) لأن التوتم ينتقل

وفق الخط أو النسب الانثوى ثم جاء بعد كولر أميل دوركايم وتأثر بآرائه ، ولكن دوركايم فصل بين علاقة الدم وعلاقة القرابة التى هى أوسع مدى من علاقة الدم ، فالأسرة فى رأيه عبارة عن « نظام اجتماعى .. وهى جماعة عادية يرتبط أعضاؤها قانونيا وأخلاقيا الواحد بالآخرين » ، فالقرابة فى رأى دوركايم ـ نسق من الحقوق والالتزامات يقوم على أساس مجموعة من المعتقدات والقواعد الأخلاقية » .

ويصور دوركايم(*) أشكال العائلة والقرابة وتطورها وفق الأسس الدينية والأخلاقية السائدة ، على النحو التالى :

(أ) فأول صورة للقرابة كانت العشيرة التوتمية حيث كانت القرابة بين الأفراد تقوم على مجرد الانتساب لتوتم واحد

---

* أميل دوركايم ـ عالم الإجتماع ذو الشهرة الواسعة (١٨٥٨ ـ ١٩١٧) ـ أهتم بفكرة الشعور الجمعى التى تختلف عن الشعور الفردى وفكرة العقل الجمعى الذى يختلف عن العقل الفردى ـ كان له الفضل مع هربرت سبنسر فى توجيه إنتباه الانثروبولوجيين الإجتماعيين إلى التحليل الوظيفى . ولقد أثرت كتابات أميل دوركايم بشكل مباشر على الانثروبولوجياالإجتماعية ، والحق أنه يعتبر شخصية مركزية فى تاريخ تطوير العلم ، وذلك بفضل نظرياته الإجتماعية العامة ، ولانه أستطاع مع فئة زملائه وتلاميذه الموهبيين ـ تطبيق هذه النظريات بمهارة على دراسة المجتمعات البدائية . وأهم دراسات دوركايم :

١ ـ قواعد المنهج فى دراسة الظواهر الإجتماعية . تلك القواعد المنهجية التى لعبت دورا أساسياً فى صياغة علم الإجتماع ودراساته عند دوركايم .

٢ ـ وضع خصائص الظواهر الإجتماعية التى تميزها عن الظواهر الطبيعية وأهمها : التلقائية ـ الجبرية ـ العمومية ـ الخارجية ، وأوضح أن الظواهر الإجتماعية لا تفسر إلا بظواهر إجتماعية ، لا بد لتفسيرها من الرجوع إلى ظروف الجماعة نفسها .

٣ـ تقسيم العمل الإجتماعى ، أهم نقطة عالجها فى هذا الكتاب هى طبيعة التطور الإجتماعى وأسبابه .

٤ـ دراسته لظاهرة الإنتحار ـ حيث توصل إلى قانونه الشهير « إذا ازداد التماسك والتداخل الدينى والعائلى والسياسى قل الإنتحار ، واذا وهن كثر الإنتحار » .

وليست على أسس دموية . فالجماعة العائلية أذن كانت مختلطة فى نفس الوقت بالجماعة الدينية والجماعة السياسية لأن أساسها جميعا كان الانتساب لتوتم واحد . ولما كانت العشيرة ـ فى ذلك الوقت ـ تكون الوحدة الاجتماعية الأولية فانها كانت ترتكز على أسس تختلف تمام الاختلاف عن الأسس التى تقوم عليها الأسرة بمعنى الكلمة لأنها لم تكن قائمة على أسس الزواج . وفى هذه الوحدة كانت مبادىء الزواج الخارجى وتحريم الزواج بين الأقارب الأقربين تقوم على الاشتراك فى تقديس توتم واحد والاشتراك فى معتقدات دينية واحدة وتقديس المرأة بوصفها المقر المتميز للمبدأ التوتمى كما ذكرنا سابقا . أما عن تقسيم العشائر إلى طبقات زواجية فانه قائم على قاعدة الزواج الخارجى التى تحرم زواج الفرد من نفس عشيرته ، ويبدو أن القرابة فى العشائر التوتمية كانت أمية لأن الانتساب للتوتم كان ينتقل فى السلسلة النسائية كما ذكر كولر .

(ب) العائلة الأمية وكانت الصورة الثانية للقرابة والأسرة ، كما نجدها عند قبائل الايووكوا والهيرون . وهذه الصورة لا تختلف كثيرا عن العشيرة التوتمية الا فى اعطاء أهمية أكبر للزوج الذى اتاح للأولاد أن يعيشوا فى منزل واحد مع أمهم واتضحت البنوة الأمية (أى انتساب الابناء للأم) بعد أن كانت غير واضحة فى العشيرة التوتمية وأصبحت تكوّن الأساس الرئيسى للقرابة .

(جـ) والصورة الثالثة هى صورة العائلة الذكرية الممتدة أى التى يكون الانتماء فيها للأب وليس للأم ، وهذه الصورة ظهرت

بفضل عدة عوامل أهمها أن الزوج كان ينقل زوجته معه إلى عشيرته من آن لآخر ، ومع الزمن ازدادت أهميته وأصبح الأولاد يسمون بأسمه ، ولكن فى هذه الصورة كانت العشيرة أشبه شيء بأسرة ممتدة ، أى تحتوى على عدد من الأسر الثنائية التى تشتمل كل منها على زوج وزوجه وأولاد يعيشون جميعا تحت عشيرة واحدة أو أسرة كبيرة ممتدة تحتوى عليها وتضمها جميعا .

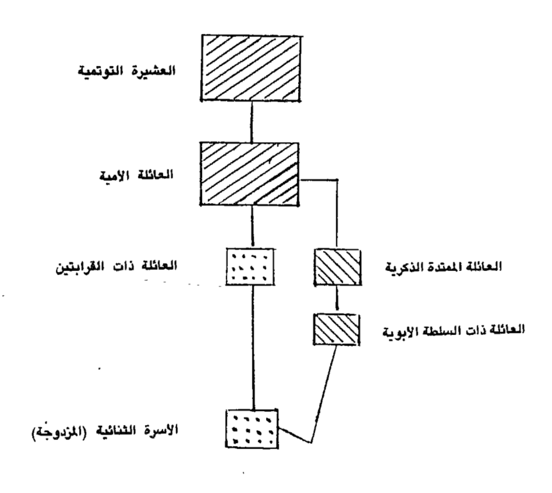
(د) والصورة الرابعة هى صورة العائلة ذات السلطة الابوية بمعنى الكلمة كما عرفها الرومان فالعائلة هنا تركزت حول شخص الأب بعد أن تفردت الأسر التى كانت تضمها العائلة الممتدة وأصبح لكل منها شخصيتها وأنفردت بنفسها كما أصبحت الملكية متعلقة برب العائلة أو رئيسها بعد أن كانت جمعية لكل أفراد العائلة .

(هـ) أما الصورة الخامسة ، فقد تطورت عن العائلة الأمية مباشرة والقرابة فيها أبوية أمية معا أى أن أقارب كلا الزوجين يعدون أقارب للأولاد بالتساوى ، وينتمى أفراد هذه العائلة إلى عائلتى الأب والأم فى نفس الآن . كما أن لأقارب الأب ولأقارب الأم نفس الحقوق بلا تمييز وتلك هى الأسرة الجرمانية ، ويسمى دوركايم هذه الأسرة أسمين فيطلق عليها اسم الأسرة الابوية والأسرة ذات القرابة الأمية وهذا غريب على كل حال ، إذ كان من الممكن أن تسمى الأسرة ذات القرابة من جهتين مثلا لأن الأسمين اللذين ذكرهما لهذه العائلة لا يدل كل مهما الا على ناحية واحدة للقرابة بينما القرابة موجودة من الناحيتين .

ويرى دوركايم أن هذه العائلة كانت مرحلة متوسطة بين مرحلة العائلة الأمية والأسرة الثنائية السائدة اليوم ، لأن مرحلة العائلة ذات القرابتين قد سوت بين أقارب الرجل وأقارب الزوجة وقربت حقوق الزوجين بعضهما من بعض مما أدى بعد ذلك إلى ظهور الأسرة الثنائية التى تسود فى المجتمعات الأوربية حيث يتساوى الزوجان فى رأيه فى القرابة والحقوق والالتزامات شيئا فشيئا حتى ينتهى التطور بمساواتهما تساويا تاما .

فتطور النظام العائلى فى رأى دوركايم قد سار من الجماعية العائلية التى كانت سائدة قديما والتى تنمحى فيها شخصية الأفراد فى شخصية الجماعة إلى الفردية التى تسود نظام الأسرة الثنائية ، كما أن التضامن فى النظم العائلية البدائية والقديمة يرتكز على الأشياء أو الثروة المشاعة بين أفراد العائلة ، ولكن التضامن قد تطور ليرتكز على شخصيتى الزوجين وأشخاص أولادهما فى الأسرة الثنائية الحديثة ، فأساسه قد تطور من الأشياء للأشخاص .

والشكل الآتى يبين تطور نظام العائلة فى رأى دوركايم وهو يبين تخطيطا لتطور نظم العائلة كما تخيله دوركايم . ويلاحظ أن العشيرة التوتمية تطورت إلى العائلة الأمية ، ثم تطورت العائلة الأمية فى فرعين للتطور مستقلين الواحد عن الآخر ، ففى الفرع الأول نشأ نظام العائلة الممتدة ذات القرابة الذكرية أو الابوية ، ثم تطور هذا النظام إلى نظام العائلة ذات السلطة الابوية أو سلطة الأب فى العائلة الرومانية القديمة . أما الفرع الثانى فهو تطور العائلة الأمية إلى العائلة ذات القرابتين ، ثم تطورت العائلة ذات القرابتين إلى نظام الأسرة الثنائية السائدة فى أوروبا .



تلك هى نظرية دوركايم التى وجه اليها نقد كثير ، ولعل أهم نقد وجه اليها هو أن الأسرة الثنائية موجودة فى مجتمعات جدبدائية وليست قاصرة على المجتمعات المتطورة . وهذا النقد قد وجهه لوى ثم اعضاء مدرسة فينا . ورد دوركايم على ذلك بأن الأسرة الثنائية كما توجد عند المجتمعات الاسترالية ليست وحدة اجتماعية بمعنى الكلمة لأن الأفراد يكونونها داخل العشيرة ويفضونها بمحض ارادتهم دون الخضوع لأية قواعد أو معايير معروفة تلزمهم بذلك ، فهى اذن لا تكون جزءاً من النظام الاجتماعى العائلى لتلك القبائل . ولقد أيد دوركايم فى ذلك ما ورد فى أبحاث كثير من العلماء مثل تونلى

وتونفالد اللذين ذهبا إلى أنه فى المجتمعات البدائية لا توجد الأسرة الثنائية على النحو الذى نعرفه .

على كل حال نستطيع أن نقول أن كل نظرية من النظريات السابقة تعالج ناحية من نواحى الأسرة فى علاقاتها وفى تغيرها بالعوامل المختلفة ونستطيع أن نتصور أن كل فئة من العوامل السابقة لعبت وتلعب دورها فى تغيير النظام العائلى ، أما مجتمعة كلها أو بعضها سواء كان ذلك فى زمن واحد أو فى أزمنة متعاقبة على مجتمع ما ، وكل ذلك رهين بالمجتمعات وما يحيط بها من ظروف بئوية واقتصادية وثقافية .

الأسرة ووظائفها :

من خلال الدراسات والنظريات الانثروبولوجية ، اتضح أن الأسرة نظام اجتماعى يسود المجتمعات البشرية خلافا لما يسود التجمعات الحيوانية من عدم وجود أسرة ، إذ الأسرة نظام اجتماعى خاص بالانسان ومن الممكن أن نلخص وظائف الأسرة فيما يلى :

أولا : أنها وسيلة من وسائل المراقبة الاجتماعية أو الضبط الاجتماعى إذ هى تنظم علاقة الذكور جنسيا بالأناث ، وفى هذه النقطة بالذات تفوق الانسان عن الحيوان .

ثانيا : هى وسيلة من وسائل التقارب بين الزمر النصفية والأخوية والعشائر والقبائل لأنها تربطها برباط المصاهرة الذى يترتب التزامات وحقوقا متبادلة بينها فى المجالات العائلية والاقتصادية والعسكرية والسياسية وغيرها من المجالات الاجتماعية الأخرى .

ثالثا : هى تؤدى إلى حسن تقسيم العمل وتنسيقه وتنظيمه بين الذكور والأناث فللزوج والزوجة تخصصات يقوم بها كل منهما بحكم وظيفته ودوره فى الأسرة .

رابعا : تقوم بانجاب الأطفال وهم الوحدات البشرية التى يقوم عليها المجتمع ، كما تقوم بتربيتهم ورعايتهم فى جو يسوده العطف والحنان ، وبذلك تعدهم فى المجتمع العائلى ليكونوا صالحين كأفراد فى المجتمع الكبير وهو مجتمع العشيرة أو الزمرة أو القبلية .

خامسا : تقوم بتنشئتهم التنشئة الاجتماعية السليمة وفق فلسفة المجتمع وثقافته ليكونوا الجيل القادم الذى يقوم عليه المجتمع .

سادسا : تمنح الأطفال مكانتهم الاجتماعية ودورهم المنوط بهم فى المجتمع وما تقتضيه تلك المكانة وذلك الدور من التزامات وحقوق .

ولقد كان علماء الاجتماع والانسان الكلاسيكيين وعلى رأسهم علماء المدرسة التطورية وعلماء المدرسة الاجتماعية الفرنسية يعتقدون أن الأسرة فى تطور وظائفها وحجمها منذ العصور البدائية حتى العصور الحديثة قد تطورت من الاتساع والكبر إلى الضيق والصغر ، فمن ناحية الحجم كانت الأسرة فى العصور القديمة تشمل الزوجين وأولادهما وأب الزوج أو الأم واجداده وأعمامه وأولادهم وزوجاتهم ، وكذلك الأحفاد وزوجاتهم ثم الاشخاص المتبنين . وذلك مثل العائلة الابوية التى كانت سائدة فى كثير من المجتمعات القديمة كاليونان والرومان والتى كان يرأسها رئيس الأسرة أو والدها أو .. ثم تطورت الأسرة على مر العصور

القديمة والمتوسطة والحديثة حتى أصبحت الآن فى المجتمعات المتطورة لا تشتمل الا على الزوج والزوجة وأولادهما وهى الأسرة الثنائية فالأسرة أذن فى رأيهم قد نقص حجمها بالتدريج .

أما الوظائف التى تناط بالأسرة فهى الأخرى ـ فى رأى هؤلاء العلماء قد تطورت من الاتساع إلى الضيق . ففى العصور البدائية كانت الأسرة تقوم بكل شيء لأولادها ، فهى أساس انجابهم وهى التى تنشئهم اجتماعيا وتحدد مكانتهم الاجتماعية ثم هى تقوم بالنسبة لأعضائها بتوزيع الأعمال والأقوات وتفصل بينهم فى النزاع وتشرف على ممارستهم للطقوس الدينية وتشرف على تعليمهم .. كانت تقوم بجميع الأعمال التى تقوم بها الدولة الآن بالنسبة للمواطن ، ثم حدث أن تطورت هذه الوظائف وأصبحت تنتقل إلى هيئات خارج الأسرة كلما اتسع نطاق المجتمع ، فانتقلت مهمة الاشراف على النظم القضائية والاقتصادية والدينية والتربوية .. إلى هيئات متخصصة خارج الأسرة بحيث لم يبق للأسرة فى العصور الحديثة الا مهمة انجاب الأطفال وتنشئتهم اجتماعيا .

وهذا فى رأى كثير من العلماء هو الذى أدى إلى ضعف الأسرة فى العصور الحديثة إذ أن قوة أى نظام من النظم الاجتماعية تقاس بما له من وظائف هامة ، فاذا زالت الوظائف تزعزع النظام لأن النظام يبقى ما بقيت وظيفته ويزول ويتلاشى إذا لم تعد له وظيفة وفقا للقاعدة البيولوجية المشهورة (الوظيفة تخلق العضو) وهذا فى رأيهم يفسر ارتفاع نسب الطلاق وتزايدها باستمرار فى جميع بلاد العالم وزيادة نسبة من يعزفون عن الزواج فى شتى البلدان ثم كثرة المشاحنات العائلية .



قبائل الهدندوه جبال البحر الأحمر ـ السودان



قبائل الانقاساناه مديرية النيل الأزرق السودان

النظام الإقتصادى فى المجتمعات البدائية
« الأنثروبولوجيا الإقتصادية »

إن طبيعة الإنسان ككائن حى لا تتمثل فقط فى نظم القرابة والتنظيمات القائمة على أساس السن والجنس والعنصر . إن إحتياجات الجسم البشرى للغذاء وللحياة فى أجواء مناسبة من حيث درجة الحرارة مثلاً تضطر الإنسان إلى إستغلال بيئته لاشباع هذه الحاجات بصفة منتظمة متتابعة .

ولأن الإنسان كائن إجتماعى فهو لا بد وأن يعيش فى مكان يعيش فيه غيره من البشر . بل ومن الكائنات الأخرى (الحيوانات) . وهكذا نجد أن أفراد البشر عليهم أن ينظموا أنفسهم حتى يتكيفوا مع بعضهم البعض ، ليعيشوا معا وليستغلوا معاً بيئاتهم كى يحصلوا على حاجاتهم اليومية ، وهذان الغرضان لا يمكن أن ينفصلا تماماً .

والجماعات التى تجيد إستغلال بيئاتها الطبيعية هى التى تبقى وتتكاثر وفقا لمبدأ البقاء للأصلح - بينما تنقرض الجماعات الأقل كفاءة فى إستغلال البيئة الطبيعية . ولقد أثبت الإنسان على مر العصور أنه قادر على إستغلال بيئته الطبيعية ، بل والتأثير فيها وتطويرها . ولا يستطيع كائن آخر أن يغير البيئة ويسخرها لاشباع حاجاته كما يفعل الإنسان - ويستخدم الإنسان فى ذلك وسائل حضارية حتى أنه يمكن القول بأن البيئة هى نتاج تفاعل الطبيعة مع الحضارة . فإذا حدث تغير فى الملامح الطبيعية لمكان ما ولم

يسايره تغير حضارى ، ظهرت بيئة جديدة ، بنوعية جديدة وبالمثل اذا حدث تغير حضارى لا يسايره تغير فى الملامح الطبيعية لهذا المكان ، فإن ذلك يؤدى إلى خلق بيئة جديدة . غير أن هذه الاستنتاجات فى الواقع نظرية بحته ، اذ أنه لا يكاد يوجد مكان بلا حضارة أو لم تمسه الحضارة . وهذا يدفعنا إلى الحرص من الوقوع فى خطأ الإيمان بحتمية تأثير البيئة environmental determinins أو بإعتبار العوامل الطبيعية هى المؤثر الوحيد على حياة الجماعة .

ولكن علينا أن ندرك أنه من المنطقى تماماً أنه حيثما تكون الحضارة أكثر بساطة زاد إعتماد الإنسان على العناصر غير الحضارية فى البيئة وهى العناصر الطبيعية ومن الأمثلة على ذلك جماعة الاسكيمو ، فإن لهم حضارة بسيطة ومع ذلك لها تأثيرها ، كما إن بيئتهم الطبيعية محدودة قاسية . والأسكيمو من صيادى الحيوانات والأسماك ويعتمدون فى حياتهم إعتمادا يكاد يكون تاما على هجرات الحيوانات والأسماك . ففى معظم أوقات السنة يصطادون حيوان الكاريبو ، بينما فى بعض الأوقات يصطادون الدب القطبى وعجول البحر كما يعيشون على صيد الأسماك فى فترات أخرى . إن حياتهم هى إستجابة دائمة لحركات الحيوانات والأسماك المهاجرة .

وقد نظمت حضارتهم هجراتهم هم نفسهم كنتيجة لذلك . أن الأسكيمو يشكلون ـ فى مستوى بدائى ـ توازن أيكولوجى مع الدببة وعجول البحر والأسماك وحيوان الكاريبو والموسى . وحتى عندما بدأ الأسكيمو فى إستخدام الأسلحة النارية لم يكن لها فى الواقع سوى تأثير بسيط على ذلك التوازن .

وعلى أى حال فإن جماعات الأسكيمو ، بل وكل الجماعات التى تعيش على صيد وجمع الثمار تمثل ذلك الطرف من المتصل الذى يعتمد على البيئة الطبيعية أو على العناصر غير الحضارية . وخلال العشر أو الخمسة عشر ألف سنة الأخيرة ، أتسعت الحضارة الإنسانية وحددت بذلك دور العوامل الطبيعية فى خلق البيئة المباشرة المحيطة بالإنسان . وحيثما توجد حضارات أكثر تعقيداً فإنها تحدد درجة إعتماد الإنسان على العوامل الطبيعية فى البيئة أنها لا تقلل من أثر أو أهمية البيئة الكلية ، وإنما تستبدل البيئة الجغرافية بالبيئة الحضارية والإجتماعية . والخطأ فى الخيمة البيئية هو إفتراض أن عوامل البيئة الطبيعية غير الحضارية تشكل وتحدد العوامل الحضارية فيها . قد تحدد البيئة الطبيعية الحضارة من بعض الوجوه ، وقد تؤثر فى أحوال الجماعات الإنسانية ، ولكنها لا تحددها ولا تشكلها . والواقع أن التاريخ الإقتصادى لمختلف الحضارات هو تاريخ صراع الإنسان مع قيود البيئة الطبيعية ومحاولاتها تحديد حضارته . أن للحضارة وسائل لاستغلال البيئة الطبيعية . وهى فى سبيل ذلك تتطابق معها وتتكيف معها ، وفى نفس الوقت . فإن عملية إستغلال البيئة الطبيعية تغير الخصائص النوعية للبيئة الطبيعية .

ولقد ربط الانثروبولوجيون الأوائل بين الايكولوجيا (أو دراسة تأثير البيئة الحضارية والإجتماعية بالبيئة الجغرافية) بالإقتصاد ، وربطوهما معاً بالتكنولوجيا . لقد أدركوا أنه لضمان إشباع الحاجات الأساسية للأفراد والجماعات إشباعا يومياً متتابعا ، فإن الناس مضطرون إلى ممارسة بعض أنواع النشاط لاستغلال بيئاتهم أى أنهم مضطرون إلى القيام بأعمال مختلفة ـ ثم

صنف الانثروبولوجيون أنماط العمل وأسموها خطأ أنماط التكيف الأيكولوجى أو الإقتصادى .

غير أن الإقتصاد فى الواقع هو نتيجة ليس فقط لتفاعل البيئة الطبيعية والحضارة كما هو الحال فى الايكولوجيا ، وإنما هو نتيجة لاستغلال الحضارة لعوامل البيئة الطبيعية أو إستغلال الحضارة فى صورة أساليب فنية لعوامل البيئة الطبيعية فى صورة موارد أو مصادر للثروة وتحويلها إلى منتجات أى أن الإقتصاد هو الطريقة التى تربط بين مصادر الثروة والتكنولوجيا والعمل ، من أجل إشباع الإحتياجات المادية للأفراد والجماعات الإنسانية .

تبعاً للتصنيف الانثروبولوجى التقليدى ، يوجد خمس أنماط تكنولوجية أساسية أو خمس أنماط إقتصادية لو أننا اسعملنا لفظ إقتصاد للدلالة على الاسلوب التكنولوجى كما كان متبعا فى السنوات الماضية .

أول هذه الأنماط هو إقتصاد وجمع الثمار ، وثانيا : الرعى ثالثا : الزراعة الحدائقية أو البدائية ، رابعاً : الزراعة . خامساً : الصناعة والإنتاج الغزير فى المصانع .

التنظيم الإقتصادى للمجتمعات البدائية

بدأت الدراسات الخاصة بالإجتماع البدائى بإتخاذ البحث عن الطعام أساساً لها ، وهذا الإتجاه متأثر إلى حد كبير بنظرية التطور الإجتماعى التى قصد لها وقننها هربرت سبنسر متخذا المنهج العلمى الذى أكتشفه داروين فى أبحاثه الطبيعية ، وقد قسم التطوريون المراحل الإقتصادية للإنسان القديم إلى ثلاث مراحل :

١ ـ مرحلة الصيد والقنص .
٢ ـ مرحلة تأنيس الحيوان وتربيته .
٣ ـ مرحلة الزراعة .

وقد تعرضت هذه النظرية إلى نقد شديد لإعتمادها على التعميم الهندسى ذلك أن التطور البشرى ليس عملية ميكانيكية ولا بيولوجية وإنما هو عملية فكرية وبشرية على أن هنالك فوارق هائلة فى التنظيمات وفى طريقة العمل والتفكير من مجتمع إلى آخر ، فليست هناك طبيعة بشرية واحدة كما كان يقرر الفلاسفة الأقدمون ، ومن أكثر الذين هدموا هذه النظرية فى هذا الحقل هاهن **Edward Hahn** ونحن لكى نفهم إقتصاديات المجتمع المتخلف ينبغى أن نفكر بمثل ما يفكر به ، بل أن هذا أمر لا بد منه لتفهم كل الحضارات المتخلفة فممارسة الصناعات والحرف والتصرف حيال الظواهر الطبيعية تعتبر منبعثة ونابعة من قوة سحرية دينية فالطيرة والتفاؤل وإستشارة الارواح أساس هام للنشاط البدائى ، والكثير من الإحتفالات والطقوس الدينية مرتبط بالنشاط الإقتصادى كالتقرب إلى أرواح الأباء والأجداد لاستنزال الخصب ولانجاح الصيد وللبدأ فى الزراعة وفى حصادها .

والأقتصاد البدائى يمتاز بخاصية هامة يقررها العلامة ـ Richard Thurn would ـ ثورنوالد هذه الخاصية هى إنعدام فكرة الفائدة سواء فى الإنتاج أو التبادل وحتى حين توجد الرموز القيمية فإن وظيفتها (النقود) تختلف عن الوظيفة التى تؤديها النقود بالنسبة لنا ، ذلك إن النقود فى المجتمع المتخلف لاتفقد إطلاقا خاصيتها المادية النوعية ولا يمكن أن تكون رمزا مجرداً لقيمة الأشياء فالعمليات الإقتصادية تتم طبقا لجودة ونوع السلع أكثر مما يكون لقيمتها المجردة ونتيجة لهذا فإن الرجل البدائى ،

لا يجهد نفسه لتجميع الثروة فإهتمامه منصرف على الأكثر إلى الخصائص المادية للعمل أو الشيء . وعلى الرغم من أن فكرة الفائدة منعدمة وغائبة فإن بعض الصعاب تنتج فى معرض التبادل لان القيم النسبية للأشياء ليست واضحة للرجل البدائى ، يقول مارسيل موس Marcal Mauce إن الباحثين تعودوا أن يقرنوا بين التكتيك وبين الظواهر الإقتصادية ، والواقع أن الظواهر الإقتصادية ليست ظواهر مادية فحسب ولكنها أكثر من ذلك فهى تملى على أفراد المجتمع موقفهم وتحدده تجاه المادة نفسها فهى إذن ظاهرة إجتماعية توجه وتدير مجموع النشاط الذى يتعلق بالأشياء الضرورية والتى تسمى مصالح ، فالاقتصاد البدائى إذن هو الذى نستطيع أن نفسر به كثيرا من جوانب الحضارة المتخلفة ومع ذلك فإن الأبحاث العلمية التى تعالج النظام الإقتصادى عند الشعوب المتخلفة تكنيكيا قليلة ، خاصة تلك التى تعتمد على إستقراء حقلى field work لا تلك التى تقوم على النظريات الإفتراضية الكبيرة . واذا كان من الضرورى على الباحث فى تصنيف الأجناس وترتيبها أو تحديد المناطق الحضارية وتوزيعها أو فى تصنيف أى مجموعة من الظواهر الإجتماعية أن يصنفها ويبوبها فى مجموعات صغيرة تمثل النقط الأساسية التى تلخص الصور التى تتضمنها الحقائق الخاصة بها فإن على الباحث الإجتماعى فى تلك المجتمعات البدائية أن يحدد تلك النقط الأساسية على أنه يمكن أن يعتبر كل نقطة منها أساساً لصورة من النظام الإقتصادى الذى تتعارض عملياته الديناميكية مع العمليات الديناميكية لصورة آخرى فهناك مجموعة محدودة من الصور العامة للنظم الإقتصادية البدائية وهى تقوم أساساً على المقارنة بين النظم الإقتصادية التى تنتج فائضاً قليلاً والتى تنتج فائضاً كثيراً ، ذلك لان مقدار الفائض Surplus عمل حاسم فى تحديد وجوه آخرى للنظم الإقتصادية والإجتماعية فى

المجتمع فهو يلعب دورا هاماً فى كثافة السكان وفى التنظيم الاجتماعى ، وفى تقسيم العمل وفى درجة التخصص وفى صور الملكية وفى التبادل وفى الميراث الفردى وفى وقت الفراغ وفى إمكانية تطور الفنون والحرف اليدوية وفى الطقوس والإحتفلات الدينية .

إقتصاد الصيد وجمع الثمار : Hunting and food Gathering

إقتصاد الصيد البرى والبحرى وجمع الثمار مرحلتان :

أ ـ مرحلة عدم تبادل الفائض وهى مرحلة جمع الثمار الاولية .

ب ـ مرحلة إنتاج قليل من الفائض المتبادل وهى مرحلة جمع الثمار المتقدم advanced

(أ) مرحلة جمع الثمار البسيطة :

هناك عدد كبير من المجتمعات يمكن أن ينتظمها هذا العنوان بالرغم من الخلافات الكثيرة فى التفاصيل ، ومنها تاسمانيا والاستراليين الاصليين وأقزام الفلبين وأقزام شبة جزيرة الملايو واينوس والفدا فى سيلان والبوشمان فى جنوب أريقيا وهنود جنوب أمريكا فى جنوب شيلى والأرجنتين وهنود شمال أمريكا فى شبه جزيرة كاليفورنيا شمالا حتى الاسكيمو وشرقا فى الولايات المتحدة وكندا إلى المناطق التى كانت تمارس الزراعة البدائية على القرى المنخفضة حول الأنهار فى شاطىء الباسفيك الغربى شمالا من نهر كلامث حتى الاسكا .

وعلى الرغم من أن هناك كثيرا من الفوارق عندما نقارن الخصائص الحضارية فان الصورة الرئيسية المشتركة لإقتصاد جمع الثمار الأولى هى :

(أ) أن الوحدات الإقتصادية للإكتفاء الذاتى كانت لجماعة أقل عادة من ٤٠ شخص وقليلا ما كان يصل العدد إلى ٧٥ ـ ٨٠ شخصاً واذا كان إجتماع فإنه يكون مؤقتاً ويكون بضع مئات قليلة .

(ب) طريقة جمع الثمار : كانت ديمقراطية وجماعية للرجال أو لجماعة تضم الجنسين وعادة جماعة أو هيئة خاصة من الشبان الكهول يصطادون ويسمكون بينما تتولى جماعة أو هيئة من الشبان والنساء وجوه النشاط والإنتاج الأخرى ، والمجتمع كله يقوم بتحركات موسمية ، فلا إستقرار فى طلب مصادر الرزق الأساسية والإنتاج الجانبى أو العرضى كان يتم عن طريق الأفراد .

(جـ) تقسيم الإنتاج : يقوم على الإحتياجات الشخصية على أن ذلك لم يكن طريقة مجزيه ، وكان الإنتاج العرضى عن طريق الأفراد أقل عادة من الذى يحدث عن طريق التوزيع الجماعى .

(د) كان هناك نوع أولى من تقسيم العمل بين الجنسين ولم يكن هناك تخصص إطلاقا .

(هـ) لم يكن هناك فائض إنتاجى فلم يكن اذن رموز أى نقود ولا تجارة ولا سوق ، والمبادلات كلها تتم عن طريق الهبة أو الهدية .

(و) الموارد الإستراتيجية للإنتاج كمنطقة الصين التقليدية ومكان صيد السمك ومواقع جمع الثمار البرية لم تكن ملكا

لاحد ولكنها ملك للجماعة أو المجموعة وكان يمكن إستغلالها للإنتاج عن طريق المجموعة نفسها أو أى فرد منها .

(ز) لم يكن هناك فوارق ملموسة فى ملكية الثروة لان معظم الموارد المنتجة لم تكن مملوكة لاحد غير أنه من الممكن وجود فوارق فى الملكية الفردية فى الأمور الإجتماعية .

(ب) الإقتصاديات المتقدمة لجمع الثمار :

توجد منطقة واحدة تمثل هذا النوع من الإقتصاد البدائى ، وهى التى تشمل القرى الشاطئية على النهر التى يسكنها الهنود الحمر من غرب شمال كاليفورنيا حتى الاسكا . ومع أن هناك فوارق كبيرة توجد فى هذه المجتمعات التى تضم مئات قليلة من الالوف فإن نقط الالتقاء والوجوه المشتركة فيها هى :

١ ـ السكان أكثر بكثير من المجتمع السابق .

٢ ـ مجموعات الإكتفاء الذاتى هى القرى التى تبلغ القرية منها فى المتوسط من ٤٠ ـ ٥٠ شخصاً . وسوق القرى تجمع بعض المئات وأحياناً تصل إلى ١٥٠٠ ـ ٢٠٠٠ شخص .

٣ ـ الإستغلال الإقتصادى للموارد يتم عن طريق العمل الجماعى للإنسان جزء من الرجال يصطادون ويسمكون ، وجزء من النساء يعملن فى أوجه النشاط الأخرى . يتم جزء كبير من الإنتاج العرضى عن طريق الفردية ولكن العمل ينظم ويقاد عن طريق قيادة وراثية من الرجال أو النساء وهذه القيادة لها سيطرة على الإنتاج العرضى الفردى أيضا .

٤ ـ تقسيم الإنتاج غير متساو ، فالأغنياء وراثة يتلقون نصيبا أوفى والباقى يقسم على الجميع والأفراد يحتفظون ببعض منتجاتهم ليقدموها هدية لبعض الرؤساء .

٥ ـ ظهر قليل من التخصص فى العمل فضلا عن نوعاً من التقسيم الأولى للعمل بين الجنسين ، وكان العبيد من الذين تخصصوا فى الأعمال المنزلية كالنقش وعمل القوالب والنسيج وصناعة السلال ـ وتضم كل قرية نوعاً من الصناعة التى تتخصص فيها فبعضها تنتج السمك المجفف والبعض الآخر المحار للزينة أو النقود .

٦ ـ بدأت بعض المنتجات تباع وسهلت التجارة عن طريق النقود المحارية وخاصة فى أسواق القرى .

٧ ـ أصبحت بعض موارد الثروة مملوكة لبعض الرؤساء التقليديين والأغنياء بالوراثة .

٨ ـ بدأت الطبقات وظهر نوع من النبلاء ونوع من الأرقاء عن طريق الوراثة .

٩ ـ بدأ هؤلاء النبلاء يتقاضون ضرائب من الأقرباء ومن أفراد البطن clan ومن القرى وأصبحوا أكثر غنى بإستغلال عمل الأرقاء والأحرار الذين يلوذون بهم وبدأوا يجمعون الثروة بطرق مختلفة بفرض رسوم على المبيعات وبتوقيع العقوبات والجزاءات على الجناة الذين يخرقون تقاليد المجتمع ، وبالاغارة على القرى الأخرى واسترقاق أهلها ونهب النقود والأشياء ذات القيمة الإقتصادية وهكذا بدأت الحروب الوحشية فى المجتمع البدائى لجمع الثروة .

وهناك صور آخرى للتبادل مقترنة بالعمليات الإقتصادية الخاصة بالقرى الواقعة على منخفضات الشواطى النهرية فى غربى شمال أمريكا ، وأكثر هذه الصور المعروفة للباحثين « البوتلاتش » Patlatch وهى مناسبة ذات إحتفالات وطقوس معينة يقوم بها رئيس البطن بتقديم كميات كبيرة من الهدايا لانها ترد من المدعويين فى بوتلاتش آخر .

٢ ـ إقتصاد الرعى : Herding

فى كل أنحاء العالم توجد أقوام يكون الأسلوب الاساسى لإستثمار بيئاتهم هو رعى الحيوان قد يكون هذا الحيوان هو الرنة كما هو الحال عند أقوام اللاب فى شمال سيبريا ، أو الماعز كما هو الحال فى مراكش والحدود الشمالية للصحراء ، وقد تكون الابقار كما هو الحال فى الشرق الأدنى أو فى أماكن كثيرة فى أفريقيا ، أو الجمال كما فى السعودية أو الخيول كما كانت الحال فى منطقة السهول الكبرى فى أمريكا الشمالية ، أو الخنازير فى ميلانيزيا أو قطعان اللاما فى أمريكا الجنوبية .

عدد الجماعات التى تعتمد فقط على الرعى كمصدر للرزق هو بلا شك أقل كثيرا من عدد الجماعات التى تمارس نشاط الرعى بينما تعتمد على الزراعة ، ومع ذلك فلا يمكن أغفال هذه الجماعات الرعوية وبصفة عامة فان الرعى يعتبر نمطا وأمانا لاستثمار البيئة من الصيد . والرعى يتيح عادة كثافة سكانية تزيد على ما يتيحه الصيد وجمع الثمار ، كما أنه يزيد من ضرورة التنقل والحركة ذلك أن الرعاة ينتقلون عادة وراء الكلاء والماء ولذلك فهم أما رحل أو يعيشون على نظام التنقل الموسمى . غير أن الأقوام الرحل

لا يتجولون عادة كيفما يحلو لهم ، وحتى لو ارادوا هم ذلك فان الأقوام الذين يعيشون فى المناطق المحيطة بهم ، لا يسمحون لهم بذلك ، بل أن لهم طرقا محددة عليهم أن يطرقوها وهم يسلكونها فى حركة شبه دائرية متتابعة . قد يغيرون فى طريقهم بعض الشيء اختصارا للمسافة أو قد يبدلون فى تتابع المناطق التى ينزلون فيها تبعا للظروف ، ومع ذلك فان خط سير الجماعة من الرحل معروف وتستغرق دورتهم ما بين ٣ أو ٤ سنوات إلى عدد قد يصل إلى ٥٠ سنة .

وحياة الترحال تفرض على الأقوام الرحل بعض القيود ، فهى تحدد ممتلكاتهم المادية كما تحدد احتياجاتهم . فالرحل مضطرون إلى الحياة فى مساكن متنقلة مثل الخيام المصنوعة من الجلد كخيام الهنود الأمريكيين ، أو الخيام المصنوعة من وبر الجمال التى يستعملها البدو العرب ، فهى مأوى بسيط سريع التركيب بحيث يسهل أقامة أو ترك المعسكر الذى تقيم فيه الجماعة من الرحل .

ويختلف التنقل الموسمى عن الترحل ، إذ أن دورة الحركة فى هذه الحالة هى حركة سنوية تتبع فصول السنة . بعض أقوام اللاب ممن يتنقلون بحركة موسمية ، فهم ينقلون قطعانهم من الرنة بين المناطق الساحلية حيث يجدون طعامهم فى فصل الشتاء ، وسفوح الجبال حيث يوجد المرعى الدائم فى فصل الصيف . وكثير من جماعات الرعى فى باكستان والهند يقودون قطعانهم إلى الجبال فى فصل الصيف ويعودون بها إلى القرى فى الشتاء . ومعظم رعاة الأبقار فى منطقة نهر النيل ممن يتنقلون موسميا ، ففى موسم الأمطار يعيشون فى القرى حيث يسكنون فى أكواخ ثابتة مستقرة ويرعون قطعانهم فى المناطق القريبة من القرى ، والمرتفعة نوعا أى التى لا تغمرها مياه الفيضان . وعندما يأتى موسم الجفاف

وتنحسر المياه يكون عليهم أن يبتعدوا بقطعانهم ليعيشوا أحيانا فى مخيمات للرعاة والقطعان تبعد بعض الشىء عن قراهم الدائمة ، حيث يعيشون فى جماعات أصغر (وفى بعض الأحيان أكبر) من الجماعات التى تضمها القرى . هذه الحركة السنوية ما بين القرى ومخيمات الرعاة هى أهم خاصية تميز تكنولوجيا وحياة المجتمعات التى تمارس التنقل الموسمى ، كما أن المساكن المؤقتة المتنقلة تميز حياة الجماعات الرحل .

والمعروف عن أقوام الرعاة فى كل أنحاء العالم ، أنهم ذووا عقليات نبيلة مستقلة . والمعروف أنهم جميعا بدون استثناء يحتقرون حياة الاستقرار وممارسة الزراعة حتى ولو كانوا أو كانت نساؤهم على الأقل يشتغلون ببعض الزراعة أو الزراعة المحدودة . ومن الممكن القول بأن أقوام الرعاة يجدون صعوبة أكثر من غيرهم فى التكيف مع أنماط الحياة الحديثة على هوامش مناطق اقتصاد الصناعة ، ولذلك فهم يقاومون عملية التكيف لفترة طويلة .

٣ ـ اقتصاد الزراعة البسيطة الأولية :
Simple agriculture

حيثما تنتشر اقتصاديات الزراعة البدائية فى مناطق اقتصاد جمع الثمار البسيطة التى لا يوجد بها فائض للتبادل فان الزراعة تصبح سريعا الاقتصاد المسيطر على أن التحسين الفنى للآلات الزراعية المكتسب بالتجارب يزيد من فائض الانتاج .

وفى المناطق قليلة الخصوبة تظهر كلما تقدمت الزراعة ظاهرة الزراعة المترحلة أو المتنقلة Shifting culivation هذا النوع من الاقتصاد الزراعى البدائى يوجد اليوم فى كثير من المناطق ، خاصة

فى القطاعات الغربية الشمالية فى أمريكا الشمالية ، على طول نهر الميسورى الأعلى الذى يصب فى نهر المسيسبى وفى المكسيك الجديدة وفى الاريزونا وفى البرازيل ، ولكنه قليل فى آسيا وفى أفريقيا لاستقرار الزراعة فيهما منذ زمن بعيد ولأن انتاج الفائض متأثر بتأنيس الحيوان واستعماله ، ونشأة الصناعات المختلفة الملحقة بالزراعة ، ومع هذا فان اقتصاد الزراعة البدائية الذى يتيح فائضا قليلا يوجد فى حدود ضيقة فى ماليزيا وميكرونيزيا وبولونيزيا وميلونيزيا (وكلها جزر فى الباسفيك) .

الملامح العامة لهذا الاقتصاد هى :

١ ـ السكان ليسوا أكثر كثيرا مما هم عليه فى الوحدات القروية فى النظام السابق .

٢ ـ الوحدة المستكفية اقتصاديا هى القرية التى تتكون من العشرات أو المئات من الأشخاص وقلما ضمت الوحدة القروية ألف شخص .

٣ ـ استغلال الزراعات الخضراوية استغلالا فرديا ، على أن المجموعة لها الحق فى الفائض إذا احتاجت اليه .

٤ ـ أمكن عن طريق الاختزان الفردى للفائض وعن طريق الاقامة الدائمة ايجاد وقت فراغ لممارسة واجادة بعض الصناعات اليدوية ، كصناعة الفخار والسلال والنقوش والنسيج .

٥ ـ نتج من التفرغ الفنى لبعض الأفراد أن ظهر فائض ذو دلالة خاصة من الانتاج الذى أصبح يقايض به أو يهدى لأن الشراء لم يكن موجودا لأنه لم يكن هناك نقود .

٦ ـ الموارد الاقتصادية الأساسية كأماكن الصيد والسمك ومواقع الثمار والحدائق ملك مشاع للمجموعة ، غير أن الحدائق

كانت تعطى للأفراد عن طريق المجموعة لمدد قد تطول ولكنها لم تكن تتخذ صورة الملكية الفردية . فالملكية لم تكن موجودة لذلك فالفوارق الاجتماعية غير واضحة .

٧ ـ لم يكن هناك توارث قيادى وبالتالى لا ضرائب ولا جزية ولم تكن الحروب عدوانية بل للأخذ بالثأر أو الانتقام أو الدفاع عن النفس .

٤ ـ اقتصاد الزراعة الرعوية المتقدمة :

Advanced Agricultural Pastoral Economy

مئات الملايين من البشر ذوى الحضارات المتأخرة تكنيكيا يعيشون فى اقتصاد الزراعة الرعوية المتقدمة ، وهم يكونون حوالى ٩٥٪ من الشعوب التى تقع فى دائرة الأبحاث الاثنولوجية تطوروا مباشرة من ممارسة اقتصاد الصيد والتسميك وجمع الثمار المتأخر إلى الزراعة أو الرعى أو اليهما معا حيث انتشر هذا النوع من الاقتصاد الزراعى الرعوى فى خلال الثلاثة أو الأربعة آلاف عام الأخيرة أو تطوروا من اقتصاد الزراعة المتخلفة التى كانت تنتج فائضا قليلا فأصبحت بعد تقدم وسائل الانتاج تنتج فائضا كثيراً أو اقتبسوا نماذج اقتصادية اجتماعية من جيرانهم المتقدمين تكنيكيا .

كل شعوب أفريقيا إذا استثنينا البوشمان رعويون أو زراعيون ينتجون فائضا كبيرا ومثلهم الجماعات التى تسكن فى الجزائر البولونية الكبيرة فى بولونيزيا وميكرونيزيا ومعظم سكان ميلانيزيا والملايو . فالرعى كاقتصاد متكامل ذى استكفاء ذاتى دون تزاوج مع الزراعة صورة نادرة ، وخير مثل لهذا الاقتصاد الهوتنتوت Hottentots من أهل الضأن وبعض المجموعات فى شمال

سيبيريا وفى شرقها الأقصى من أهل الوعول ومع ذلك فالرعى فى معظم أحواله مزدوج مع الزراعة ، ولهذا اعتبروا نوعا واحدا وهو ما نعرفه باقتصاد الزراعة الرعوية .

الملامح الرئيسية والأساسية لهذا النوع من الاقتصاد هى :

١ ـ السكان يكثرون إذا استثنينا المناطق الصحراوية وبعض المناطق الشحيحة جغرافيا .

٢ ـ ظهرت إلى جانب القرى مدن صغيرة towns ومدن كبيرة cities ذات الالاف من السكان .

٣ ـ استغلال الموارد الاقتصادية أصبح عن طريق الأفراد أو الأسر أو العبيد الذين يملكهم النبلاء أو الرؤساء أو الملوك المطلقون Monarchs وأصبح جزء كبير من الانتاج يحمل إلى الأسواق للبيع ، يحمله الحرفيون artisans وأكثرهم من الرجال كما ظهر تخصص حرفى اقتصادى فى بعض المدن والمناطق كما هو الحال فى قرى أمريكا الوسطى وفى مناطق السودان المختلفة .

٤ ـ تقسيم الانتاج على المنتجين غير متكافىء فملاك الأراضى وأصحاب القطعان الحيوانية وأسياد العبيد يحصلون على نصيب أوفر والملوك والنبلاء والأغنياء يحصلون على الضرائب من المنتجين .

٥ ـ جزء كبير من الانتاج يباع فى أسواق المدن وساعد على التجارة ظهور النقود ، ففى أفريقيا الغربية كانت النقود هى المحار وفى أمريكا الوسطى كانت النقود هى حب الكاكاو .

٦ ـ الموارد الاقتصادية التى تتمثل فى الأراضى الزراعية وفى قطعان الحيوانات وفى العبيد وفى الرعايا وأفراد الشعب هى منذ الآن مملوكة للنبلاء والملوك والطبقات العليا الغنية .

٧ ـ كما أن عدم المساواة أصبح ظاهرة اجتماعية فى ملكية الموارد الانتاجية فقد ظهرت الطبقات الاجتماعية التى كانت تتجه احيانا إلى تكوين مجتمعات حرفية منعزلة .

٨ ـ الملوك والنبلاء كانوا يعتمدون على أعمال العبيد والأرقاء وانتاجهم أو على انتاج الطبقات الفقيرة . أما الطبقات العليا فكانت تعتمد على المصادر الكثيرة وأعوان متعددين مثل جباة الضرائب والعشور وجامعى الجزاءات (الغرامات) وموظفى الحكومة والبوليس والجيش .

٩ ـ بدأت الحروب الكبيرة وأمكن فيها الحصول على الغنائم من مال وأراضى وقطعان الحيوانات والأسرى ، وكل هذا يعطى للرؤساء الذين يزدادون ثروة وغنى . وأخيرا يمتاز هذا النوع من الاقتصاد الزراعى الرعوى بأنه متطور ومتحرك أكثر من الأنواع الأخرى وذلك بكمية الانتاج الضخمة ووجود التخصصات الواسعة فى العمل وممارسة الاختراعات والتعود على أستعمالها وتقدم حركة التجارة والمبادلات . ولكثرة الاتصالات والمواصلات .

وتطورت الزراعة فى كثير من المجتمعات وظهرت الآلات الزراعية الحديثة شيئا فشيئا فزادت مساحة الأراضى الزراعية ، وزادت انتاجية الأرض بفضل الوسائل التكنولوجية الحديثة ، وأدى ذلك بالطبع إلى تطور فى نظم الانتاج الزراعى ، ونظم تسويقه ، وحدث ازدواج فى كثير من المجتمعات بين نظامى الزراعة والصناعة .

٥ ـ اقتصاد الصناعة :

أن التصنيع أو اقتصاد المشروعات الصناعية أو الانتاج الوفير فى المصانع ، يفترض وجود شكلا من أشكال الطاقة يفوق فى

قوته ونشاطه ، طاقة الانسان وطاقة ما يمكنه استئناسه من حيوانات . وقد جرى التقليد العلمى على اعتبار اختراع الآلة البخارية بداية للثورة الصناعية . تماما كما يعتبر اختراع المحراث بداية للثورة الزراعية ومع الثورة الصناعية ظهرت مشكلات وظواهر جديدة حلت محل المشكلات والظواهر التى كانت موجودة من قبلها تماما كما فعلت الثورة الزراعية من قبل .

ويبدو أن تأثير نظام الصناعة على المجتمع والاقتصاد الذى يقوم أساسا على الصناعة فى صغر تلك النسبة من السكان التى تعمل فى انتاج المواد الغذائية الأساسية ، بينما فى المجتمعات التى يسود فيها اقتصاد الصيد أو جمع الثمار أو الرعى أو الزراعة الحدائقية يكون الجهد الأساسى لمعظم أفراد المجتمع مستقل فى عملية انتاج الغذاء ، وفى اقتصاد الزراعة المتطورة تقل نسبة المشتغلين فى انتاج الغذاء من السكان ، وفى اقتصاد الصناعة تنخفض هذه النسبة إلى أقل من ١٠٪ ، وقد تقل عن ذلك فى المستقبل .

أن المجتمعات التى تسود فيها الصناعة تقابل ـ على الأقل من بعض النواحى ـ مجتمعات الصيد وجمع الثمار . فى مجتمعات الصيد وجمع الثمار يكاد لا يوجد انفصال بين الاقتصاد المنزلى أو اقتصاد الأسرة وبين اقتصاد الجماعة ككل بينما فى اقتصاد الصناعة ينفصل اقتصاد الأسرة انفصالا يكاد يكون تماما عن اقتصاد المجتمع . تبقى الأسرة وحدة استهلاكية أساسية ، ولكنها تفقد وظيفتها كوحدة انتاجية . ويقوم بالانتاج جماعات جديدة تمثلها شركات الأعمال التى تقوم على مبادىء وأخلاقيات التعاقد لا على مبادىء وأخلاقيات القرابة . وترتبط الأسرة كوحدة استهلاكية بالمصنع أو الشركة كوحدة انتاجية عن طريقين :

أولا : تربط الأدوار الاجتماعية ومتطلباتها بين أرباب الأسر الآباء والأزواج العاملين على كسب لقمة العيش أو توفير ضرورات الحياة ، وبين الفنيين أو التنفيذيين فى الشركات أو المصانع .

ثانيا : هناك عناصر مادية وأفكار مسيطرة ، وذلك مثل النقود التى توفر الوسائل اللازمة لدفع حركة البضائع أو المنتجات سواء بين المنتج والمستهلك (وبذلك تربط بينهما) أو بين المنتجين بعضهم وبعض . وينطبق هذا الوصف على المجتمعات التى تسود فيها الصناعة ، سواء المجتمعات الاشتراكية كالاتحاد السوفيتى أو المجتمعات الرأسمالية كالولايات المتحدة .

ومن الواضح أن كلا من أنماط الاقتصاد سابقة الذكر ، يساير نمطا خاصا أو سلسلة من أنماط الهيئات أو المنظمات الاجتماعية . فجماعات الصيد وجمع الثمار يعيشون فى الغالبية العظمى من الأحوال فى جماعات أو زمر هى مجموعات من الأسر النووية . والرعاة يعيشون فى جماعات تقوم أساسا على القرابة الدموية بين الرجال فى المجموعة ، وترتبط بهم زوجاتهم ، أى أنهم يعيشون فى أسر ممتدة ذات قرابة أبوية أو فى جماعات محلية ذات نسب أبوى . والمجتمعات التى تقوم على الزراعة الحدائقية أو الزراعة المتطورة ، ترتبط حياتها بالأنماط القروية من التنظيمات ، بعض هذه الأنماط تتكون من جماعات عصبية أو جماعات ترتبط بقرابة دموية . وفى الانماط المتقدمة كما كان الحال فى أوروبا فى العصور الوسطى ـ تحتوى القرية على مناطق أو ضيعة للاقطاعى ترتبط بذلك النظام الاقطاعى الطبقى ، وتنشأ خارج الاقطاعيات مدن صغيرة ترتبط ببعضها بروابط تجارية .

وبصفة عامة فان جميع هذه الانماط من الاقتصاد ترتبط بتنظيمات اجتماعية تقوم لدرجة ما أو لأخرى على مبادىء القرابة ـ بينما يرتبط اقتصاد الشركات الصناعية من جهة أخرى بذلك النمط من المجتمع الذى يقوم أساسا ـ لا على روابط القرابة بل على نظام التعاقد . وعادة يصاحب عملية تبنى نظام الشركات الصناعية فى مجتمع ما ، أو اتخاذه شكلا أساسيا للحياة يصاحبة نقص فى نطاق الأسرة لتصبح أسرة نووية صغيرة الحجم ، وضمور فى كافة التنظيمات القرابية الأخرى .

ونتيجة للثورة الصناعية ، ظهر ليس فقط مجتمع له شكل جديد واقتصاد جديد بل ظهرت كذلك طريقة جديدة للتفكير فى الاقتصاد والمجتمع ، طريقة أطلق عليها « الاقتصاد السياسى » وهى طريقة يمكن اعتبار ابحاث ودراسات آدم سميث بؤرة لها ينطلق منها الفكر مباشرة إلى النظرية الاقتصادية الحديثة . ونما الاقتصاد كعلم فى ذلك الطراز من المجتمعات الذى يمثله ذلك المجتمع الذى أنطلق يحاول تحليله ودراسته . واقتصاد المشروعات الصناعية يوجد دائما ـ كما سبق القول فى مجتمع يقوم أساسا على مبدأ التعاقد ـ وأن اختلف من مجتمع لآخر فى مقدار ما يتيحه نظام التعاقد من حرية . وفى مثل هذه المجتمعات لا يقوم بتنظيم العمل ولا ملكيته أو توزيع مصادر الثرة أو الموارد الاقتصادية على أساس القرابة والجماعة ، وانما تحددها شبكة التعاقدات التى ترتبط بنظام الصناعة أو التى يتبناها أويتطلبها نظام الصناعة نفسه[٣٣] .

ونظام التعاقد الذى يساند التطور فى العالم الغربى هو التعاقد الحر غير الرسمى المتمركز حول البيع بسعر يحدده قانون العرض والطلب أو ما يسمى بسوق التبادل . وفى موقف كهذا . يصبح كل ما من شأنه أشباع الحاجات والرغبات الاجتماعية

والفردية لأفراد المجتمع ، خاضعا لنفس نمط التعاقد ، وهو التعاقد القائم على السوق . وتصبح الموارد والعمل والأرض والمنتجات والمهارة أو القدرات خاضعة لنظم التعاقد . ومن الشائع بل ربما كان من الضرورى أنه حينما تخضع عناصر الانتاج والمنتجات لنمط واحد من تعاقد السوق ، فانها تقاس كلها بمقياس واحد وهو النقود . مثل هذا النظام الذى تقدر فيه عناصر الانتاج والمنتجات بمقياس النقود ، وتخضع فيه للتعاقد . يسمى بنظام السوق .

ويتميز نظام السوق بأن عناصر الانتاج تتغير قيمتها أو الأهمية النسبية لكل منها تبعا لما يشير اليه قانون العرض والطلب المتحكم فى نشاط السوق . وفى مثل هذا المجتمع تكون عناصر الانتاج والتى تسمى عادة بالمواد الخام فى حوزة المنتجين الذين يشترونها كما أن جهد القوى البشرية العاملة أو العمل ، يشتريه أيضا المنتجين ، كما يشترون كذلك حق استغلال الأرض بما يسمى الايجار . وبالمثل تعرض الخبرة أو القدرة الفنية على الانتاج أو التكنولوجيا للبيع وحتى النقود يكون لها سعر وتباع فى السوق وسعر استعمال النقود أو استثمارها يسمى الفائدة أو العائد . وكل هذه العناصر أو المبيعات تتجمع أو تتراكم وتتعادل أو تتوازن مع بعضها البعض عن طريق تحكيم قيمة النقود أو القياس بواسطة قيمة النقود وهذه الحقيقة هى التى ساعدت على ذلك التقدم الهائل فى علم الاقتصاد فى الوقت الحديث وذلك التوسع فى الانتاج لمختلف المواد أو المنتجات . ولكن لكى يتقدم علم الاقتصاد ، لابد له من بديهيات أو فروض علمية يتقدم على أساسها وتوجد هذه البديهيات أو الفروض العلمية فى نظم السوق القائمة على التبادل طبقا لقانون العرض والطلب ، ومقدار الزيادة أو النقص فى الحرية الممنوحة للأفراد أو الجماعات التى تسعى

الشركات لعقد اتفاقيات أو ابرام عقود تتفق مع ما تمليه مصالحهم المادية .

وفى بعض المجتمعات الصناعية وهى المجتمعات الاشتراكية . لا تمتد الحرية الممنوحة للأفراد أو الجماعات إلى ذلك الحد الموجود فى الدول الرأسمالية ، إذ يكون للسلطة السياسية فى المجتمع حق الاشراف على وتحديد أو ضبط نظم التعاقد فلا تتركها حرة تابعة لسوق التبادل .

وبمقارنة الأوضاع فى المجتمعات الصناعية بالأوضاع فى المجتمعات الأقل تحضرا كمجتمعات الصيد وجمع الثمار أو الرعى أو الزراعة البدائية أو الحدائقية ، نجد أنه فى تلك المجتمعات تقوم الجماعات كالأسرة أو الجماعات التى تربطها علاقات النسب تقوم أساسا على نظم القرابة لا على التعاقد . ويكون للقرابة أهمية وقيمة عظيمة كما أن الأرض والعمل والموارد والخبرة أو المهارة تنظم وتعامل بطريقة تختلف تماما عما هو شائع فى المجتمعات الصناعية . والسوق ـ أن وجدت فى تلك المجتمعات يكون لها معنى أو دور سطحى ـ وطريقة تنظيم عناصر الانتاج لكى تفى باحتياجات الأفراد تختلف تماما عن الطريقة الشائعة فى الدول الحديثة ـ هى طريقة قد تبدو للبعض غير منطقية ، حتى يتم فهمها وأدراك الأسس التى تقوم عليها .

آثار تقابل وتلاقى الاقتصاديات المختلفة

يظل بعض الميراث الثقافى والاقتصادى يباشر وظيفته مباشرة جزئية بالرغم من اندماجه فى أنواع متقدمة من الاقتصاد ، فهناك بعض الملامح القليلة من اقتصاد وجمع الثمار الأولى استمرت

عندما حوصر هذا النوع المتأخر من الاقتصاد فى كل مكان بأنواع من الاقتصاد أكثر مقدرة على الانتاج الكبير . وذلك مثل الذى نجده بين أقزام الكونغو الذين تطوروا من صيادين بدائيين منعزلين إلى متخصصين فى صيد الفيل على أثر اختلاطهم بالمجموعات الكنغولية الأخرى من الزنوج ومع هذا فقد احتفظ هؤلاء الأقزام ببعض تكتيك الصيد القديم الذى كان يقابل اقتصادهم المتخلف وحياتهم الاجتماعية القائمة عليها ، ولكن النظام الاقتصادى كله قد تغير وظل هذا التكتيك ظاهرة متخلفة عن مجتمعهم الجديد . هذا الاحتفاظ بالتكتيك القديم ترجع أما إلى أسباب سحرية دينية أو إلى أسباب عملية وهى قدرتهم على العمل به والقدرة على ممارسته مثال آخر : حدث فى كندا فى القرن السادس عشر حينما أنشأ الفرنسيون مراكز تجارية لتجارة الفراء فقد وجد هنود الجونكين Algonkin انفسهم محصورين فى نطاق اقتصاد أوروبى غير نظام اقتصادهم الصيدى بسرعة وغير كذلك كثيرا من القيم الاجتماعية فقد كانت الموارد الانتاجية أماكن الصيد أساسا مملوكة للمجموعة قبل قدوم الفرنسيين ولكنها أصبحت مملوكة للسلالات من الصيادين الذين بدأوا ينتجون الفراء للأسواق الفرنسية وأصبح لكل سلالة صيدية منطقة خاصة . وحين بدأ علماء الأجناس الاجتماعيون فى دراسة صورة وطريقة ملكية الأراضى فى شرقى شمال أمريكا وجدوا تنظيما مماثلا لتنظيم الالجونكين الذى كان نتيجة لاحتكاكهم بالاقتصاد الأوروبى ، بل إن كل الصيادين من الهنود الحمر الذين ينتجون الفراء للأسواق الأوروبية أخذوا هذا التنظيم فى طريقة تملك موارد الانتاج ، وهكذا أصبح الهنود الحمر متخصصين ومحترفين كصيادين وذلك من خلال اتصالهم بذلك الاقتصاد المتقدم .

والخلاصة أن مصير الاقتصاد البدائى القائم على الرعى

والزراعة أو القائم على جمع الثمار والصيد والتسميك تشكل إلى حد كبير بالظروف الجديدة من اتصال الأوروبيين ، بالشعوب البدائية التى تمارس ذلك الاقتصاد على أن درجة وقوع التأثير يتوقف على كمية ونوع الاتصال فالأوروبيين ظلوا يجمعون الفراء فى بعض المناطق ويطورون زراعة المطاط فى مناطق أخرى ويهتمون بقشرة جوز الهند فى أخرى ، وهكذا فالشعوب ذات الاقتصاد المتأخر إذا استثنينا عددا قليلا أصبحت مع تمدد الاقتصاد الأوربى وانتشاره أما نوعا من المتخصصين البدائيين المنعزلين وأما نوعا من غير المتخصصين الذين يعملون فى ظل الاقتصاد الجديد كأيادى عاملة رخيصة وهذا هو الأكثر .

المجموعة

إن كلمة مجموعة التى تتحدث وتحدثنا عنها فى دراستنا للاقتصاد البدائى تحتاج إلى توضيح وإلى تعريف محدد يطابق كل مرحلة من مراحل الاقتصاد البدائى .

١ ـ كلمة مجموعة تعنى فى مرحلة اقتصاد جمع الثمار مجموعة من الناس يعيشون فى مكان معين وينتجون بوسائلهم الموروثة من الموارد القائمة فى ذلك المكان المعين . وأفرادها معتمدون على بعضهم فى الانتاج والتوزيع ولهم إلى جانب ذلك حياة اجتماعية وحضارية ولغوية مشتركة وموروثة . وفى المراحل الأولى لجمع الثمار تكون المجموعة عبارة عن معسكرات أو جماعات صغيرة تتحرك موسميا داخل الحدود الجغرافية والمجال التقليدى لهم وذلك بغية انتاج ما يسد الرمق .

٢ ـ مجموعة تعنى فى الاقتصاد المتقدم لمرحلة جمع الثمار القرى الصغيرة ذات الأسواق وهذه القوى مكتفية اقتصاديا

ومستقلة سياسيا ولكنها تتزاور وتجتمع اجتماعات مؤقتة فى مناسبات مختلفة تجمع المجموعات كلها . غير أن اطلاق كلمة قبيلة أو tribe - nation على مثل هذه الوحدات المستكفية اقتصاديا والمستقلة سياسيا والمتحدة حضاريا والتى يتحدد حجمها بالقرية أو الجماعة ليس عملا دقيقا .

٣ ـ فى حالة اقتصاد الزراعة البدائية ، المجموعة هى تجمعات من القرى الصغيرة المستكفية اقتصاديا والتى يمكنها وجود الموارد التى تنتج فائضا من التخصص فى وقت الفراغ والتى تباشر التبادل بين القوى كنتيجة للفائض والتخصص .

هذه التجمعات التى تتقاسم موطنا مشتركا ولغة وحضارة مشتركين والتى تتداخل اقتصاديا تسمى قبيلة . وبعض القرى الفردية كبيرة لدرجة أن كل واحدة منها تضم قبيلة مثل الزونى Zuni فى المكسيك الجديدة .

٤ ـ فى مرحلة الزراعة المتقدمة أو الرعوية تصبح كلمة مجموعة أوسع دلالة فهى تطلق على القرية الفردية الكبيرة أو على مجموعة القرى المعتمدة على بعضها والمتعاونة اقتصاديا حيث تحمل السلع موسميا إلى سوق القرية للتبادل أو البيع . ويمكن أن تعنى تجمعات أكبر ذات موطن مشترك ولغة وحضارة مشتركتين وذات اقتصاد مستكفى استكفاء ذاتيا ومعتمد ومتعاون . هذه المجموعة يمكن تسميتها قبيلة أو أمة فالقاعدة الأساسية فى تحديد كلمة مجموعة هو استكفاؤها الذاتى اقتصاديا وتبعيتها واعتماد أفرادها بعضهم على بعض .

فالتجمعات العائلية لجمع الثمار فى العصر الحجرى القديم كانت متأخرة فى تكنيكها وفى حياتها الاقتصادية أكثر من أى مجموعة عرفت فى ميدان الأبحاث الاثنولوجية . هذه التجمعات العائلية قبل التاريخ المعتمدة اقتصاديا على بعضها والتى كانت أساسا وحدات اقتصادية ثم وحدات جيولوجية او اثرية يجب أن تعتبر أولى المجموعات .

الملكية

الملكية كما هى ممارسة اليوم تنزع فى أصولها من الفردية التى قررها القانون الرومانى وجاءت النظرية الكلاسيكية فجعلت الملكية حقا طبيعيا وصفة لازمة للفرد ، وهذا التفكير هو الذى ظهر فى الثورة الفرنسية وسيطر على اتجاهها الاقتصادى والقانونى ، فقد جاء فى اعلان حقوق الانسان أن الملكية الفردية من الحقوق الطبيعية الثابتة . وفى القرن التاسع عشر وصلت فكرة الشيوعية البدائية Primitive comunism كمعارضة لفكرة الحق الطبيعى وقد اعتمدت فكرة الشيوعية البدائية على أبحاث Summer Maine صاحب كتاب مجموعات القرى سنة ١٨٧١ وعلى أبحاث لويس مورجان التى طورها واستوحى منها انجلز كتابه فى أصل العائلة والملكية الفردية والدولة سنة ١٨٨٤ . وأكثر الأبحاث عمقا فى هذا المجال أبحاث ليفلى Levelye صاحب كتاب الملكية وصورها البدائية سنة ١٨٩١ . ليفلى يرى أن الملكية العقارية فى بدايتها عند كل الشعوب كانت جماعية ولم تصبح فردية الا متأخرة ، وعندما أصبحت الزراعة غزيرة ومثمرة . وليفلى يعتقد أن المجتمع الزراعى كان أساسا شيوعيا ثم ظل ينكمش من ناحية ويمتد من ناحية أخرى إلى الفردية ، فاتخذ تنظيما مجموعة البطن ثم مجموعة

القرى ثم مجموعة العائلة الكاملة وانتهت بمجموعة العائلة الحديثة .

وقد نهض أعداء كثيرون لنظرية الشيوعية البدائية منهم الاقتصاديون والمؤرخون وعلماء الاجتماع ، ويعتبر روبرت لوى R. Lowie من أهم علماء الاجتماع الذين هاجموا الفكرة ، فهو يؤكد فى كتابه علم الاجتماع البدائى ، أن الملكية الفردية لم تكن غائبة عن البدائيين ، وأن الشيوعية الخالصة التى تنكر كل حق فردى لم تعرف اطلاقا ، وادعاء لوى فى بعض أجزائه قد يكون صحيحا ولكنه مغالى فيه ويتضح ذلك مما يلى :

١ ـ إنه يعتمد على حقائق لم يؤكدها هو نفسه إذ يقول فى كتابه أن معلوماتنا عن هذا الموضوع ليست نهائية وأن معلوماتنا فى الغالب غير كافية ، ويقول إنه ليس من الممكن انشاء صلة من الوقائع بطريقة سليمة ، وإنه ليس لدينا من المعلومات الوثيقة غير قليل .

٢ ـ لأن نظريته تختزل الوقائع والحقائق التى لا تناسبها بطريقة غير موضوعية فهو ينسب بعض الوقائع التى تشير إلى الحياة المشتركة أما إلى الكرم الذى تستدعيه ضرورات أخلاقية أو إلى حاسة التضامن والتكافل solidarity كما لو كانت الوقائع والحقائق الأخلاقية ليست حقائق موضوعية مثلها مثل الحقائق القانونية .

٣ ـ اعتمد لوى فى نظريته على المعلومات الخاصة ببعض الشعوب خاصة فرا سيلان ، والفرا لا يعتبرون من الشعوب البدائية منذ دراسة سليجمان لهم .

ان البحث فيما إذا كانت الملكية ابتداء جماعية أو فردية

وضع غير سليم للمسألة فنوع ثقافتنا العقلية يختلف عن مثله عند الشعوب القديمة ، نتيجة لهذا كما يقول مارسيل موس Marcel Mauss فى كتابه « مبادىء الاثنوجرافيا » ص ١٧٩ أن الكلمات والاصطلاحات التى نعطيها للأشياء ليست لها أى أهمية فانه توجد ملكية جماعية يديرها واحد هو رئيس العائلة المتكاملة . ويذهب موس إلى أن هناك ازدواجا فى نوعى الملكية كما هى الحال عند الدوجون Dogon (فى السودان الفرنسى) حيث يكون الحقل ملكا للعائلة والحديقة ملكا للأفراد نفس الأرض يمكن أن تكون حديقة أو حقلا على مدار السنة حسب الفصول .

لوى نفسه يعترف بأن بعض الشعوب يمكن أن تمارس الشيوعية فى بعض الأشياء وتعترف فى أشياء أخرى بحق الملكية ص ٢١٢ ويقول أن الحقوق الجماعية والفردية توجد متوازية وبطريقة مدهشة أحيانا ص ٢٢٨ ، والواقع يجب أن نفرق بين الملكية Propriete كفكرة ذات قيمة قانونية وبين مجرد التملك للاستمتاع بالحق Possession ، والتملك ضرورة فردى لأدوات الاستعمال اليومى ، واننا نجد تقريبا فى كل مكان هذه التفرقة بين الملكية والتملك ، فالملكية تمثل فى نشأتها عنصرا دينيا فهنالك رابطة تربط بين المالك والملكية وهى رابطة غيبية يسميها ليفى برول Levy Bruhl المشاركة ، فى هذه المرحلة لا تكون الملكية فكرة وانما تعبيرا من التعبيرات العامة والمادية فى نفس الوقت ، ولا يمكن أن تظهر إلا مغلفة فى سلسلة معقدة من الأفكار والعواطف الغيبية . وبطريقة التخلص التدريجى التقدمى من العناصر الغيبية تكونت فكرتنا الاقتصادية القانونية عن الملكية ، ليس فحسب ملكية الأراضى فحتى ملكية الآلات كانت تتطور كرابطة غيبية بين العامل والآلة وهذا هو السر فى أن علامة الملكية أساسا كانت هى علامة المحرم

Taboo ، ففى المجتمعات الطوطمية يلعب دور المالك رجال الطوطم فهم الذين يستطيعون السماح لرجال البطون الأخرى بأستهلاك أو استعمال الحيوان أو النبات الطوطمى ، تبعا لمالينوفسكى الأساس الغيبى والقانونى للحقوق العقارية عند قبيلة التروبرياندیز Trobriandise يقوم على الاعتقاد أن كل جد من أجدادهم ، أوجد كل رجل وكل امرأة فى النسب الأموى Ligne Maternelle خرجو جميعا من الأرض فى مكان معين ، هذا المكان أصبح مكانا مقدسا .

ويعتبر دى كولانج Fustel de Coulanges من أكثر الكتاب الذين أوضحوا العلاقة الدينية المقدسة للملكية فى كتابه المدينة القديمة وقد جاء اعلان الثورة الفرنسية كما سبق فى سنة ١٧٨٩ فوصف الملكية بانها حق مقدس .

مما سبق يتضح أن الملكية الفردية كما نعرفها اليوم نابعة من التفكير المتأثر بالقانون الرومانى وأن وضع المسألة بهذه الصورة فى ما يسمى بالمجتمعات المتأخرة ناشىء من نوع ثقافتنا ، فقد رأينا أنه يمكن أن يكون هناك ازدواج فى نوعى الملكية كما هى الحال عند (الدوجون) ، وإن الملكية كانت فى نشأتها جماعية وخاصة ملكية الأراضى والموارد الاقتصادية الأخرى ، وانها مرتبطة فى رأى فريق كبير من الاجتماعيين والقانونيين الفرنسيين خاصة بأفكار دينية وأنه يجب أن نفرق بين الملكية كفكرة ذات قيمة قانونية وبين مجرد الاستمتاع Possession

وإذا كانت الموارد الرئيسية للانتاج مملوكة لكل المجموعة فى المستويات المتخلفة للاقتصاد الا أن أنواعا من التملك الخاص كان معروفا سواء فى الأشياء المادية كالملابس وأدوات الطهى والأكل وأدوات الانتاج كأسلحة الصيد والمنازل أو فى الأشياء المعنوية

كالأغانى والرقص والطب والتنجيم والطقوس الدينية وأن كانت هذه الأخيرة أى الأشياء المعنوية ليس لها قيمة كبيرة من ناحية التحليل العلمى للوظائف الاقتصادية ، ففى المجتمع الذى ساده اقتصاد جمع الثمار البدائى الذى لا ينتج فائضا كانت الموارد الاقتصادية هى مناطق الصيد البرى ـ قطعان الحيوانات المتوحشة . ومواقع الثمار المتوحشة ، وأماكن صيد السمك ، وشواطىء صيد المحار ، فشاطىء المحيط وخلجانه حيث ينتشر عجل البحر من الموارد الاقتصادية للأسكيمو ، كما أن قطعان الرنة كانت موردا اقتصاديا لهم ، هذه الموارد من صيدى البر والبحر ملك لأفراد المجموعة من أسر الاسكيمو الذين يعيشون فى الشتاء عيشة عائلية فردية فى صيد البحر وعيشة جماعية فى الصيف فى صيد الرنة ، على أنه يمكن أن تعطى المجموعة امتيازا لبعض أسرها فى ملكية بعض مناطق الصيد وقد عرفت هذه الحالة عند فدا سيلان ولكن الفدا قد يسترجعون هذه المناطق ، ولا يمكن أن يقوم دليلا على الملكية الفردية طول مدة الامتياز المعطى للأسر لأن اعطاء حق الاستمتاع يتضمن الحق عليه ، فهذا دليل على ملكية المجموعة أكثر مما هو دليل على ملكية الأفراد . وإذا كان فى استراليا الشمالية حالات ملكية البطن لمناطق الصيد فذلك أيضا مما يدرج تحت ملكية المجموعة التى خصصت لبعض البطون بعض المناطق تخصيصا دائما لمساعدة المجموعة نفسها .

هنالك بعض الأبحاث التى أثبتت ملكية الأفراد فى الاقتصاد البدائى لجمع الثمار لبعض أشجار الفواكه البرية ولبعض المناحل ولكننا نعتبر هذه الحالة من الحالات غير ذات الأهمية الاقتصادية كما انها ليست من الظواهر العامة . والصورة العامة للملكية فى هذه المجتمعات هى ملكية المجموعة للموارد الانتاجية الرئيسية التى هى

مناطق الصيد البرى والقطعان المتوحشة والأماكن المائية لصيد الأسماك والمحار ومواقع الثمار المتوحشة ، ففى اقتصاد جمع الثمار المتقدم تكون الملكية قد ظهرت بالنسبة لرؤساء القرى الأغنياء وذلك عن طريق التوارث فى موزد أو عدة موارد اقتصادية كالأرقاء ومناطق انتشار السمك فى شواطىء الأنهار فالمجموعات الشاطئية فى ولاية أورجون Oregon على الباسفيك وفى واشنجتون كانت تعرف الرقيق وحدة لملكية فردية وكمصدر من مصادر الانتاج والأغنياء من الرؤساء فى المناطق الشمالية مثل الكواكيوتل من الهنود الحمر من المجموعة التى تتحدث لغة واكاشان الذين يقيمون فى شمال جزيرة فانكوفر من جزر الباسفيك فى كولومبيا البريطانية والتسميان مجموعة لغوية تسكن فى الشمال الغربى لكولومبيا البريطانية ، هؤلاء يملكون عدة موارد من الموارد الاقتصادية السابقة الذكر .

فى مرحلة الاقتصاد الزراعى البدائى الذى ينتج فائضا قليلا يكون المورد الاقتصادى الرئيس هو الأرض المستغلة زراعيا وهى مملوكة للمجموعة وممنوحة بعض أجزائها لبعض البطون أو الأسر لاستغلال مؤقت وهذا ما فسره كثيرون خطأ بأنه نوع من الملكية الفردية فحيثما يمكن للمجموعة أن تمنح بعض الموارد لبعض البطون أو الأسر فان الموارد تكون ملكا للمجموعة هنالك قيمة اقتصادية صغيرة للملكية الفردية للمساكن المسكونة على مدار العام وللأدوات الخاصة التى هى مملوكة تملكا شخصيا . وفى الاقتصاد الزراعى الرعوى الذى ينتج فائضا كثيرا يقع معظم الموارد الاقتصادية فى يد الأغنياء ، والموارد هى : الارقاء ـ الأراضى الزراعية ـ القطعان المستأنسة من الحيوانات ـ الخيول ـ مناطق صيد البر والبحر وهكذا تتأكد الملكية الفردية .

ملحقات الملكية :

تبادل الهدايا والهبات والميراث :

الأموال المنقولة فى المجتمعات البدائية تكون ملكيتها فردية وتكون محل هدايا متبادله بين الأفراد ففى جزائر ازامان عندما يتقابل صديقان مع بعضهما البعض بعد غيبة قصيرة يتبادلون الهدايا . وفى الحياة اليومية العادية للقرية نجد تبادلا مستمرا بين الناس من الأخذ والعطاء ، والرجل الشاب أو المرأة الشابة قد تعطى شيئا لشخص أكبر منها ولا تنتظر مقابلا له . أما بين الأشخاص المتعادلين فى السن فان الشخص الذى يعطى ينتظر أن يأخذ مقابلا لما أعطى ، وكذلك الشأن فى الزيارات التى تعقدها الزمر المحلية المتجاورة يكون تبادل الهدايا تقليدا هاما . وهذا التقليد يوجد كذلك عند هنود السهول الأمريكيين كما يوجد عند كل البدائيين ، كما تقدم الهدايا وتتبادل فى المناسبات الهامة كالميلاد والبلوغ والزواج والوفاة وغيرها . وهذا التقليد يكون الأساس الأول الذى تقوم عليه عادة البوتلاتش المشهورة أو نظام البوتلاتش فى الصين وجنوب شرقى آسيا ، وكذلك عند كثير من المجتمعات البدائية مثل قبائل كواكيوتل فى الولايات المتحدة . والبوتلاتش عبارة عن حفل كبير يقوم به أثرياء القبيلة ويدعى إليه رؤساء العشائر ويتناولون الأطعمة ثم توزع عليهم الهدايا . وعلى المدعوين دعوة الداعى لحفلات مشابهة . وهذه الحفلات المتبادلة هى المناسبة لاظهار العظمة والتفوق ولتثبيت المكانة الاجتماعية فرؤساء العشائر وأثرياؤها يتبادلون الدعوات وتوزيع الهدايا واظهار التفوق والعظمة ، والفرد الذى يتفوق فى ذلك يصل إلى مرتبة القيادة للعشيرة أو حتى لكل القبيلة ، وبالعكس نجد الفرد الذى لا يستطيع رد العزائم أو الدعوات فى نفس المستوى الذى بلغه

منافسوه يسقط فى السلم الاجتماعى . وهذا النظام يسود غالبا فى المجتمعات البدائية التى يعيش سكانها على جمع الثمار ، وهى غالبا جماعات غير مستقرة تنتقل من مكان لآخر ويرى بعض العلماء ومنهم هيل أنه فى مثل هذه المجتمعات لا تستطيع العشيرة تكوين ثروات كبيرة والاحتفاظ بها نظرا للتنقل ومن ثم تكثر الولائم بين العشائر ، أى أن البوتلاتش كنظام اجتماعى اقتصادى ينتج عن ظروف العشائر التى لا تستطيع تكديس الثروات والاحتفاظ بها .

ويرى معظم علماء المدرسة الاجتماعية الفرنسية وعلى رأسهم مارسيل موس Mauss أننا فى حالة البوتلاتش أمام عقود تبادلية تبرم بين الأفراد وبين العشائر ، وهى عقود تتحدد بها مكانة الفرد الاجتماعية فهو يتنازل للأفراد الآخرين عن جزء من ثروته ويوزع عليهم الهدايا والهبات اظهارا لعظمته ومكانته ، ويرد الآخرون بالمثل ولنفس الأغراض وتكون الغلبة لمن يبز زملاءه فى ذلك السبيل . كما يرى العلماء الفرنسيون أن هذه العمليات التى ستتحول فيما بعد إلى عمليات التبادل الاقتصادى فى المجتمعات المتطورة .

على أننا نجد فى كثير من المجتمعات البدائية أن تبادل الهدايا الذى يسود الحياة اليومية بين الأفراد والذى يتناول كل ما يملكه الفرد من سلع لا يتنافى مع وجود تبادل تجارى للسلع . والفرق بين التبادل الودى والتبادل التجارى أن الأول يستهدف تكوين علاقات اجتماعية وسياسية قوية بينما الثانى يستهدف الهدف التجارى والاقتصادى المحض ، وعلى كل فان العلماء يعتقدون بأن البوتلاتش يعد نظاما عاما تمر به كل المجتمعات فى عصورها التطورية كمرحلة سابقة على التبادل التجارى المحض .

إلى جانب البوتلاتش هناك نظام الكولا الذى يوجد فى جزر ميلانيزيا وهو عبارة عن قارب يمر بالجزائر المختلفة يوزع على الأفراد بعض ما يحتاجون إليه ويأخذ منهم بعض ما هم فى غنى عنه ، وهى عملية معقدة تتم على أسس سحرية ودينية . فالقارب يدور حول الجزائر دورتين إحداهما فى اتجاه عقربى الساعة والأخرى عكس هذا الاتجاه . وهو فى كل مرة يوزع سلعا مختلفة فمثلا فى قبائل تروبرياند يوزع القارب فى دورته المتجهة مع عقارب الساعة عقودا ذات أغلفة حمراء ، وفى دورته المتجهة المتجهة عكس عقارب الساعة يوزع أغلفة بيضاء للأسلحة ، والتبادل بهذه الطريقة يتم بين القبائل وبين الجزر وعن طريق طقوس سحرية معينة . وكل فرد يحصل على سلعة من سلع الكولا لا يحتفظ بها إلى الأبد فى حيازته ولكنه يبدلها بغيرها وهكذا عملا بالمثل القائل « إذا دخلت الكولا ستستمر فى الكولا » بحيث يتصور أن شخصا إذا تعامل مع الكولا يظل طول حياته يتعامل معها . فالكولا تنشىء نوعا من العلاقات الدولية بين الجزر وبين القبائل وبجانب هذا التبادل السحرى للكولا نشأ بشكل غير أساسى نوع من التبادل الاقتصادى للبضائع والسلع المفيدة مثل الأوانى الخزفية والمنتجات الزراعية . ولكن هذا النوع من التبادل يعد فى المرتبة الثانية من الأهمية بالنسبة للنوع الأول ، وهو الكولا بمعنى الكلمة لأن الكولا هى الأساس وهى المسماة باسم التبادل السامى أو الشريف عادة حرا فى وصيته بشأنها بل تخضع فى ذلك لقواعد دقيقة وأما فيما يتعلق بالأموال المنقولة أى غير الثابتة فيكون لديه حرية كبرى فى تغيير قواعد الميراث عن طريق الوصية . وقد تقوم مشكلات فى الميراث والوصية عند البدائيين كتلك التى توجد عند المتطورين ، وذلك لمعرفة ما إذا كان تصرف المتوفى عن طريق الوصية متمشيا مع القواعد والتقاليد ، وذلك كما حدث عند قبائل

الاشانتى الأفريقية سنة ١٩٤٢ . ففى تلك القبائل ينتقل ميراث الأرض مع قرابة الرحم ، فهو ينتقل من الشخص المتوفى إلى أخيه ولكنه لا ينتقل أبدا إلى ابن المتوفى لأن هذا الابن ينتمى لعشيرة أمه التى تختلف عن عشيرة أبيه . وحدث أن أوصى شخص قبل وفاته بأحد حقوله لابن له وكلف أخاه بتنفيذ تلك الوصية التى إذا لم تنفذ ستؤدى إلى محاكمة الأخ أمام الموتى الأجداد . ومات الرجل ورفض أخوه تنفيذ وصية وبعد ثلاثة شهور من ذلك شب حريق فى القرية ادى إلى وفاة الأخ أثناء مكافحة الحريق . وقبل وفاة هذا الأخير صرح لأقربائه بأنه يعتقد أن أخاه المتوفى قد طلبه أمام القضاء فى عالم الأرواح ليحقق معه فى سبب عدم تنفيذ وصية أخيه . وبعد وفاة هذا الأخ انتشر اعتقاد فى القبيلة ونشأ تقليد جديد يؤدى إلى أن يرث الابن أرض أبيه . وفى المجتمعات التى لازالت فى مراحلها البدائية الأولى نجدهم عادة لا يعرفون قواعد الميراث ، فمثلا فى المجتمعات التى تعيش على الصيد وجمع البذور والثمار والمجتمعات غير المستقرة نجد الثروة ضئيلة ومعظمها أموال منقولة اكتسبها الشخص بنفسه أو قام بصناعتها ، لذلك يعمد رجال العشيرة بعد وفاته إلى تدمير هذه الأشياء أو توزيعها على بعض الأقارب والأصدقاء أو استخدامها فى بعض الطقوس الدينية الخاصة بوفاته . ولكن لا توجد قواعد معينة للميراث والوصية فى مثل تلك المجتمعات ، وذلك كما هى الحال فى كثير من المجتمعات الاسترالية وقبائل البوشمان الأفريقية وجزر أندامان والاسكيمو والشوشون والكمانتش فمثلا الكمانتش عند وفاة الشخص تدمر كل الأشياء التى كان يملكها أو يستخدمها من ملابس وأسلحة وأدوات للعمل ، بل والحصان الذى كان يركبه والكوخ الذى كان يعيش فيه . أما الأشياء التى كان يحتفظ بها بشكل شخصى كالأشياء التى كان يتحلى بها أولها ذكرى خاصة عنده فتدفن معه وعلى العموم فى

المستويات الثقافية المنخفضة ، من الصعب أن نجد قواعد للميراث محددة تطبق بدقة بل نجد فى بعضها أن كل أسرة قد تطبق قواعد تختلف عن الأسرة الأخرى فى داخل العشيرة الواحدة . ولقد توصل بعض العلماء إلى تلخيص قواعد الميراث عند البدائيين فيما يلى :

١ ـ الأموال المملوكة جمعيا أو جماعيا لا تورث ، والأموال المملوكة فرديا قد تورث وقد تختفى باختفاء صاحبها .

٢ ـ الشخص يرث الأشياء التى يستطيع أن يستخدمها فالأشياء التى تخص الرجال يرثها الرجال والتى تخص النساء يرثها نساء ، ولذلك نجد التوارث بين الزوجين يكاد يكون معدوما فى المجتمعات البدائية . وربما يكون ثمة سبب آخر لعدم التوارث بين الزوجين فى كثير من الحالات وذلك لانتماء كل منهما لعشيرة مختلفة .

٣ ـ فى كثير من المجتمعات كما هى الحال عند الايفوجادو تؤول الأرض للابن الأكبر لعدم تثبيت الثروة ولأن المانا أو الروح العام ينتقل دائما من الأب للإبن الأكبر إلى مالا نهاية ، وفى بعضها الآخر تؤول الأرض أو الثروة فى أكبر جزء منها للابن الأصغر ليستطيع الزواج ودفع المهر .

٤ ـ لا تظهر قواعد الميراث والوصية فى المجتمعات البدائية إلا بعد مرحلة تطورية ولكنها لا توجد أو ليست واضحة فى المجتمعات التى لازالت فى مراحلها التطورية الأولى .

التبـــادل التجارى :

كان آدم سميث والاقتصاديون الكلاسيكيون يعتقدون أن هناك غريزة إنسانية أطلقوا عليها اسم غريزة التبادل هى أساس الحياة الاقتصادية فى المجتمع بمعنى أن الانسان يولد مزودا بهذه الغريزة المزعومة وهى التى تؤدى بالأفراد إلى أن يتبادلوا السلع مع بعضهم البعض ، وهذه الغريزة فطرية غير مكتسبة وراحوا بناء على هذه الغريزة يرسمون تطور شكل التبادل فى المجتمعات منذ العصور البدائية حتى اليوم ، فالتبادل يأخذ أولاً شكل المقايضة البسيطة Barter ، ثم تتغير صور المقايضة ، ثم يظهر التبادل عن طريق البضاعة الثالثة ، أى أن يصير الاتفاق على سلعة معينة كالملح يستطيع صاحبها أن يبدلها بأية سلعة أخرى ، ثم تظهر النقود التى هي وسيط للتعامل أو التبادل وبعد ذلك تظهر العملات الورقية والطرق المختلفة لتسوية عمليات التبادل بين الأفراد ثم بين الدول .

ولكن دراسة علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا للنظم الاقتصادية السائدة فى المجتمعات البدائية والتى كانت سائدة عند كثير من المجتمعات القديمة فى عصورها السحيقة تؤكد أن ثمة مجتمعات بلا تبادل تجارى ، أو على الأقل بلا تبادل من النوع المعروف فى المجتمعات المتطورة ، وهذا هو ما أدى ببعض علماء الاجتماع والاقتصاد إلى الحديث عن مرحلة تطورية مرت بها المجتمعات الانسانية فى عصورها البدائية ، أطلقوا عليها اسم المرحلة ما قبل الاقتصادية أو مرحلة الأشكال قبل الاقتصادية للمبادلة . فى تلك المرحلة لا توجد مبادلة اقتصادية بالمعنى المحدد لهذا التعبير وهو تنازل شخص لآخر عن سلعة نظير سلعة أخرى ، أو عن جزء من ثروته لآخر نظير جزء من ثروة ذلك الشخص الآخر ،

وذلك على أساس تساوى قيمتى السلعتين المتبادلتين أو الجزئين المتبادلين ، أى أن المجتمعات قد مرت بتلك المرحلة وانتقلت بعد ذلك إلى المراحل الاقتصادية التى تسودها صور التبادل الاقتصادى . ومن أمثلة تلك الصور التبادلية فى المرحلة ما قبل الاقتصادية ، نظام اليوتلاتش ونظام الكولا .

ولقد راح كثير من العلماء يقارنون بين هذه الأنواع من التبادل القائم على العمليات السحرية والمبنى على الطقوس المعقدة وبين أنواع كانت تشبهها عند المجتمعات القديمة . ومن بين تلك العادات نوع من التبادل يعد أقرب إلى التبادل التجارى من الأنواع السابقة . ويسمى باسم التجاره الصامتة . وهو عبارة عن نظام قديم جدا تعرض لوصفه هيرودوت ، والخاصة الرئيسية للتجارة الصامتة هى أن الجماعات التى تقوم بها لا تتكلم ، بل لا يرى بعضها بعضا لأن ذلك محرم عليها إذ تأتى الجماعة الأولى حاملة بضائعها أو السلع التى تريد أن تبادلها ، وتضعها فى نقطة ما ، أحيانا على الحدود . وهذا المكان عادة مكان مقدس كما أنه مكان سلم لا حرب فيه . ثم تترك هذه الجماعة سلعها وتنسحب ، ثم تأتى الجماعة الثانية بعد ذلك وتختبر السلع ، فإذا أعجبتها أخذتها ، وإلا تركتها فى مكانها ، وهو أمر يعنى أن الطرف الآخر لابد أن يضيف إلى سلعه سلعا أخرى . وتأخذ الجماعة الثانية السلع وتضع مكانها سلعا أخرى لكى تأخذها الجماعة الأولى . ولقد قص المؤرخون القدامى كيف كان اليونان يبادلون المصريين وكثيرا من الشعوب فى العصور السحيقة بهذه الطريقة فكانوا ينتظرون بمراكبهم فى البحر بعيدا عن الشاطىء بعد أن يضعوا بضائعهم ليروا ما إذا كانت قد أعجبت الطرف الآخر .

وهنا أيضا نجد أن التبادل التجارى بمعنى الكلمة لا يمكن

ان يتم إلا من خلال عادة تقديس مكان التبادل . التى تعد أساس هذا النظام الذى كان واسع الانتشار فى العصور القديمة ، وهو « سلام السوق » ويسود مثل هذا النظام عند كثير من الشعوب الأفريقية الزراعية التى تتكلم لغة البانتو حيث تعقد السوق فى مواعيد محددة وفى مكان معين يختار خارج القرى حيث يحرم دخول الأسلحة أو المسلحين إليه . وفى هذا المكان تدفن بندقية كرمز لنبذ الحروب والمنازعات والشدة والعنف وتعلق عصا بقبضة مستديرة كرمز للسلام ولحياد السوق . ويذهب بول إيفلان فى كتابه « رسالة تاريخية عن قانون الأسواق » إلى أن سلام السوق كان ذا اهمية قصوى فى العصور القديمة لأن هذا السلام هو الأساس الذى أدى فيما بعد إلى نشأة علاقات دولية على أن السوق لم تكن تجارية اقتصادية فحسب بل كانت لها وظائف سياسية وثقافية وتربوية وذلك كما يبدو من دراسة الأسواق الأثينية والسوق الرومانية حيث كانت تجتمع الهيئات الإنتخابية والتشريعية والقضائية والعسكرية ، وتتم الأعياد الدينية إلى جانب الاتفاقات التجارية .

ودراسة الأسواق العربية فى الجاهلية كسوق عكاظ وغيرها تؤكد هذا الرأى . فالسوق كانت تقوم بأغراض شتى إلى جانب الأغراض الاقتصادية والأسواق العربية التى كانت سائدة عند القبائل فى الجزائر كانت تتم فيها بجانب التجارة والثقافة السياسية ومعرفة الأخبار وتبليغ الناس بالقرارات السياسية والاقتصادية وكل ما يهم الرجل العادى . والأسواق القديمة فى تحليل كثير من علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا كانت فى الأصل أماكن للاحتفالات الدينية ، كما كانت للأسواق فى جميع المجتمعات القديمة آلهة تحرسها ولا سيما عند اليونان والرومان ولها قواعد من يخرج عليها

فإن الآلهة كما كان معتقدا فى ذلك الوقت ـ كفيلة بعقابه .

ونستطيع إذن أن نقول أنه كانت هناك مجتمعات سادت فيها أنواع من المبادلة التى لا تتم لغرض اقتصادى بحت بل ترتكز على أغراض أخرى دينية وسياسية . وكل المجتمعات قد مرت بتلك المرحلة فى نهاية المرحلة التى تسمى بالمرحلة قبل الاقتصادية ، ثم انتقلت بعد ذلك إلى المرحلة الاقتصادية .

وقد درس كارل بيكر تطور النظم الاقتصادية فى المجتمعات الانسانية بعد أن عبرت إلى المرحلة الاقتصادية ، وقسمها إلى ثلاث مراحل :

أولا : مرحلة الاقتصاد المنزلى المقفل : وهو نوع من الاقتصاد بلا تبادل .

(المقصود بلا تبادل خارج المجموعة) حيث نجد أن السلع المنتجة تستهلك فى نفس الوحدات التى أنتجتها كالعشيرة أو الأسرة أو القبيلة أو القرية ولكن هذا النموذج من الاقتصاد لا يخص التاريخ الماضى فقط لأنه يسود ولا يزال سائدا فى كثير من قرى المجتمعات المتطورة ففى كثير من الدول الأوروبية لا يزال الفلاح يستهلك ما ينتجه ، فهو ينتج طعامه ويغزل صوف أغنامه وينسجها ويصبغ منسوجاته ، وهذا النظام سائد عند كثير من فلاحى الدول المتطورة فى أوروبا وغيرها .

المرحلة الثانية هى مرحلة اقتصاديات المدينة حيث تنتقل السلع المنتجة مباشرة من الوحدة التى أنتجتها إلى الوحدة التى تستهلكها وهو اقتصاد ذو تبادل بسيط . وهذا النوع يمثل نموذج الاقتصاد الذى كان يسود المدينة فى العصور الوسطى . فالمدينة فى العصور الوسطى هى ـ فيما يعتقد بيكر ـ عبارة عن مركز حصين

أمين وأصبح سوقا يجذب الفلاحين القاطنين على مقربة منه فى الاقليم . ففى ألمانيا مثلا كانت المدن فى أوربا الوسطى قد وضعت بحيث تكون فى متناول الفلاحين الذين يقصدون إليها ، أى فى وضع متوسط بين القرى بحيث تستغرق المسافة ذهابا وإيابا من القرية إلى المدينة يوما واحدا ، وبذلك أصبح سكان المدينة ، التجار الطبيعيين للريفيين ، أى يشترون منهم منتجاتهم ثم يبيعونهم مصنوعاتهم عندما تقدمت الصناعات والحرف فى المدن . ولا زال هذا النوع من الاقتصاد موجودا للآن فى كثير من المجتمعات المتطورة .

والمرحلة الثالثة هى مرحلة الاقتصاد القومى : وفى هذا النوع تتوسط سلسلة من الوسطاء بين المنتج والمستهلك ، ويقوم هذا النوع من الاقتصاد على سلسلة معقدة من التبادل . فالسلعة المتبادلة يمكن أن تمر بسلسلة مركبة من التداول تتم عبر أزمنة طويلة ومسافات شاسعة .

الفصل السادس

(أ) الحياة السياسية فى المجتمعات البدائية :

تقوم الحياة السياسية على ثلاثة أنواع من التنظيمات : الأول قرابى ، فالسلسلة القرابية والعشيرة والزمرة الأخوية والزمرة النصفية تكون وحدات سياسية لكل منها رئيس يدبر شؤونها العائلية ويمثلها ازاء الزمر الأخرى التى تتكون منها القبيلة . وهذه الوحدات القرابية تكون مستويات مختلفة لمجالس تدبر شؤون القبيلة بأكملها كوحدة سياسية وتدبر شؤونها العامة . أما التنظيم الثانى فهو تنظيم مكانى أو أراضى ، وأصغر وحدة فى هذا التنظيم هى الأسرة ، تليها فى الحجم الخيمة بالنسبة لمجتمعات الرحل المتنقلين ، وهى مجتمعات الصيد وجمع الثمار والبذور ، والقرية بالنسبة للمجتمعات الثابتة غير المتنقلة ، تليها مجتمعات العصبة التى تتكون من عدة خيام بالنسبة لمجتمعات الرحل ، والحى أو الأقليم الذى يتكون من عدة قرى بالنسبة للمجتمعات غير المتنقلة .

وفوق ذلك كله تأتى القبيلة أو الأمة التى تضم كل تلك الأقسام أو الوحدات التى تجمع بينها لغة واحدة وثقافة واحدة ، وقد تجمع القبيلة زمرا غريبة عنها ولكن على أساس تبعية هذه الزمر وخضوعها لها . وقد يقوم اتحاد كنفدرالى بين القبائل بقصد الدفاع المشترك عنها أو القيام بهجوم ضد قبائل أخرى معادية لها وتظل كل قبيلة مشتركة فى الاتحاد محتفظة بحريتها وتحديد

سياستها أما النوع الثالث من التنظيمات فهو وجود روابط زمر داخل العشائر وهذه الروابط أو الزمر تلعب دورا سياسيا خطيرا فى القبيلة إلى جانب ما تقوم به من أدوار اجتماعية أخرى : ومن هذه الروابط أو الزمر روابط تقوم على الجنس فللرجل روابط وللنساء روابط أخرى ، فثمة روابط نسائية تقوم لقضاء وقت الفراغ واللعب وقد تدخل النساء روابط الرجال وزمرهم كمساعدات ، ومثل تلك الروابط تساعد النساء والرجال على شغل أوقات الفراغ . كما توجد روابط أساسها السن وروابط دينية . ولكن من أهم هذه الروابط جميعا هى ما تسمى روابط الأخوة والروابط السرية وهى على نوعين ، نوع يشمل كل شبان القبيلة وهى مفتوح للجميع ، وتسمى الروابط القبلية ، ونوع ليس مفتوحا للجميع بل يكون قاصرا على بعض الشبان الممتازين .

والنوع الأول مشهور عند قبائل استراليا الوسطى وفى ماليزيا ولكنه منتشر بشكل واضح فى غرب أفريقية من سيراليون حتى نيجيريا والكاميرون والكنغو ، ولا تشترك النساء عادة فى هذا النوع من الروابط وأن كن يشتركن من آن لآخر . ولكن قد يحدث أحيانا أن يشترك الرجال فى روابط النساء وتشترك النساء فى روابط الرجال . وأشهر هذه الروابط فى أفريقية برو ونبدو ، ووظيفة هذه الروابط الاشراف على كل مظاهر الحياة الاجتماعية للقبيلة هى عائلية ودينية وسياسية ، فرئيس رابطة برو مثلا يعادل فى مكانته ومركزه الملك أو رئيس القبيلة . أما النوع الثانى فهو الروابط السرية الأخوية ، وهو عبارة عن نوع من الجمعيات غير المفتوحة التى تقصر عضويتها على بعض أفراد القبيلة ، وتسمى الرابطة باسم حيوان أو طير أو زاحف من الزواحف . ومن أشهر هذه الروابط فى غرب افريقية رابطة التمساح ورابطة الثعبان ورابطة

النمر الصغير أو الليوبارد . ولهذه الروابط دور سياسى خطير لأنها تثير الرعب والفزع ولأنها تلعب دورا ارهابيا ضد كل من ينحرف من أفراد القبيلة أو ساستها أو المسئولين فيها ، وهى إلى حد ما تشبه فى عنفها وارهابها عصابة كوكلاس كلان الأميريكية ، ويلبس أعضاؤها جلد الليوبارد ، كما يترك أعضاؤها على فريستهم بصمات مصطنعة تشبه بصمات مخالب الليوبارد ليوهموا الناس أن ثمة ليوباردات أو نمورا صغيرة حقيقية هى التى قضت على الضحية .

وتقوم هذه الجمعيات بالاشراف أو الضبط الاجتماعى لسلوك أفراد القبيلة ، وتقوم بوظائف دينية وسحرية والخدمات الاجتماعية . وفى كثير من القبائل الأفريقية تحولت هذه الجمعيات الى جمعيات ارهابية تثير الرعب فى كل مكان .

تلك هى الأسس الثلاثة الرئيسية التى تشكل النظم السياسية فى المجتمعات البدائية ، فالوحدات القرابية تكون فى العادة أقساما فرعية من الوحدات المكانية ، وللوحدات المكانية رؤساء يقودونها وذلك الى جانب رئاسة القبيلة عامة . ويختلف رئيس القبيلة عن رئيس الوحدة القرابية أو المكانية من حيث مدى سلطته ، إذ هو ذو سلطة أوسع ، وتختلف سلطاته ونفوذه من مجتمع لآخر : ففى مجتمعات أمريكا الشمالية يكون هناك رئيس للقبيلة وقت السلم ورئيس آخر وقت الحرب ، ورئيس القبيلة فى وقت السلم يختار عادة من بين رؤساء العشائر والعصبيات ، ويشرف رئيس القبيلة على العلاقات الداخلية داخل القبيلة وله اشراف قضائى على بعض الجرائم أما عن الجرائم والخلافات التى تنشأ داخل القبيلة بين الأفراد فيحلها الطرفان المتنازعان بنفسيهما . وقد يختار رئيس القبيلة لمدة معينة كما هى الحال عند الايروكوا وقد

يختار لمدة حياته كاملة وقد يكون تعيين الرئيس بالوراثة فيصبح الحكم ملكيا كما هى الحل فى كثير من مجتمعات بولينيزيا وأفريقية .

وفى تعيين الملك قد يختار الابن الأكبر أو أى شخص من ورثته حسب النظام المتبع والذى يختلف من قبيلة لأخرى . ويصطبغ الحكم السياسى فى المجتمعات البدائية عادة بالصبغة الدينية ، فالرؤساء سواء رؤساء الوحدات أو الرؤساء العامون للقبيلة أو الملوك يلجأون لرجال الدين لمنع الشر عن المجتمع وانماء الخير والبركة وللتطبيب ، كما أن كثيرا من شكليات الحكم والقضاء والتشريع تحتاج لوسائل سحرية دينية ، بل وفى كثير من المجتمعات يعتقد أن لرئيس القبيلة أو الملك مواهب وقوى سحرية ودينية خاصة . وفى كثير من المجتمعات كما فى ساموا يوجد متحدث رسمى باسم رئيس القبيلة . ونجد النظم السياسية المعروفة ممثلة فى النظم السياسية القبيلة ، فنجد نظام حكم الأقلية Oligarchy الذى يكون تحكميا أو غير تحكمى والنظام الملكى ونظام حكم الشيوخ (أى شيوخ القبيلة) والنظام الديمقراطى أى حكم القبيلة لنفسها والنظام السياسى الدينى Theacracy عندما يطغى رجال الدين على السلطة .. وذلك حسب ظروف كل مجتمع . ويساعد الرئيس أو الملك مجلس يتخذ قرارات ينفذها ، والمجالس شائعة فى المجتمعات البدائية كما فى المجتمعات المتطورة فمثلا فى العصبات أو القرى الصغيرة يجتمع الأفراد الذكور كلهم فى مجلس ليقرروا ما يرونه وينفذ رئيسهم قراراتهم . وفى المجتمعات الاسترالية يجتمع مجلس من الشيوخ ويقرر ، وينفذ الرئيس القرارات . وفى مجتمعات أخرى يتكون مجلس من ممثلى الأسر ويقرر ، كما هو الحال عند الاستك ، فالمجلس هنا يتكون من رؤساء الأسر ومن

رئيس للحرب ومن ناطق باسم المجلس . وفى كثير من المجتمعات الأفريقية يبدو الحكم أونوقراطيا ، إذ يحكم الملك بشكل ديكتاتورى ، ومع ذلك عليه أن يرجع لمجلس القبيلة ليأخذ رأيه ، ويستطيع هذا المجلس المكون من شيوخ القبيلة أن يؤلب القبيلة ضده ، وفى الماضى كان يستطيع خلعه . فى القبائل اذن مجالس تختار بطرق مختلفة وصلة الرئيس أو الملك بها هى التى تحدد نظام الحكم إن كان ديمقراطيا أو تحكميا . وإلى جانب ذلك ، الروابط والزمر لا سيما الزمرة السرية القبلية والأخوية التى تلعب دورا كبيرا فى تشكيل الحكم فى المجتمعات البدائية وكثير من علماء الاجتماع أو السياسة يرى فيها أساسا للأحزاب السياسية فى المجتمع الحديث .

فالجمعيات أو الروابط هى هيئات سياسية هامة فى المجتمعات البدائية فهى تقوم بكل ما تقوم به الأحزاب السياسية فى المجتمع الحديث . وكذلك الجمعيات الاجتماعية والأندية والروابط العمرية والعائلية وغيرها من الروابط التى تعج بها المجتمعات البدائية ، وذلك الى جانب نوع من الروابط العسكرية التى تسود مثلا عند هنود السهول فى أمريكا ، وهى روابط تنشر الروح العسكرية بين الشبان وتقودهم .

ذلك ملخص للحياة السياسية عند البدائيين ، ولكن ثمة نقطتان لهما أهمية عند الكلام عن الحياة السياسية البدائية : الأولى هى مركز المرأة السياسى فى المجتمعات البدائية ، وهنا نجد أن المرأة مع مشاركتها للرجال فى الأعمال المدنية والاقتصادية من الناحية السياسية لا تشترك الا نادرا فالرئاسة دائما للرجال حتى فى المجتمعات ذات النسب الامى ، إذ فى هذه الحالة تكون الرئاسة لأخ المرأة الأولى أو الأم . وفى الجمعيات السرية تكون العضوية

مقصورة على الرجال . والمجالس التى يؤخذ رأيها وتسير دفة السياسة تكون فى معظم المجتمعات قاصرة على الرجال دون النساء ، مما دعا أحد علماء الانسان وهو شورتس منذ خمسين سنة إلى القول بأن النساء غير اجتماعيات أو سياسيات ، وهو بهذا انما يذهب عكس الاعتقاد السائد الآن فى كثير من الأوساط من أن النساء اجتماعيات لأن عليهم تقوم حياة الجمعيات والأندية والصالونات والخدمات الاجتماعية . ويبدو فى رأى بعض علماء الانسان وعلى رأسهم شورتس ان اشتراك المرأة فى الأندية أو قيامها بالمجهودات الجبارة فى حياتنا الاجتماعية الحديثة لا يوجد ما يعدله فى المجتمع البدائى ، فمعظم الجمعيات والروابط رجالية وان كان يسمح للنساء بالاشتراك فى بعضها ، ولكن على العموم يحرم على المرأة الاشتراك فى حياة الأندية والحياة الاجتماعية فى المجتمعات البدائية بحيث تتفرغ - وفق رأى شورتس - للولادة والبيت والحلقات الأسرية فى المنزل .

ويبدو أن ذلك راجع إلى ضآلة وقت الفراغ الذى تتمتع به المرأة فى المجتمع البدائى لأنها تقوم بأعباء منزلية جسيمة فى اعداد الطعام ، كما تشارك الرجال فى الصيد والزراعة . يضاف إلى ذلك أن الزمر أو الجماعات السرية فى جميع المجتمعات البدائية تقريبا تحرم على النساء والأطفال الاشتراك فيها ولا سيما تلك الجماعات السرية التى تقوم بنشاط روحى دينى لأن معرفة النساء أو الأطفال لأسرار هذه الجمعيات يعد من الناحية الدينية خطرا يهدد الجماعة أو القبيلة ، ولذلك لو حدث أن شاهدت امرأة بالصدفة أو طفل الطقوس الدينية السرية التى تقوم بها تلك الجماعات فلابد من اعدام المرأة أو الطفل المسكين حفظا للسر .

وهكذا يعاقب النساء والأطفال فى غرب أفريقية وأستراليا

وحتى فى قبائل بيوبلو ذات النسب الأمى أو الانثوى . والنقطة الثانية تتعلق بنظام الرق فى المجتمعات البدائية ، ونظام الرق يتعلق بنظام الطبقات ، وهذا النظام الأخير يقوم على وجود فوارق ترجع للسن والجنس والثروة والحسب والنسب والعمل ، وهى التى تعطى للشخص مكانته الاجتماعية ودوره فى حياة الجماعة . وفى المجتمعات الشديدة البدائية لا توجد أسس كافية للتفرقة بين الأفراد أو لوجود طبقات اجتماعية فالاسكيمو وقبائل جزر اندمات والاستراليين وقبائل سمانج والفده والشوشون والفيوجيون واليوشمان ليس عندهم طبقات إذ عند الجماعات التى تعيش على قطف الثمار والصيد لا توجد عوامل جمع الثروات أو تكوين مكانة سياسية أو اجتماعية خاصة وبالتالى يندر وجود طبقات اجتماعية . انما يظهر التمايز والتفاضل فى المجتمعات البدائية ذات النظم الاقتصادية التى تطورت نوعا ما وبالتالى تظهر الطبقات الاجتماعية ، كما يظهر نظام الطوائف المهنية كما يظهر نظام الرق حيث يكون للنظام وظيفة يؤديها ، إذ يستفاد من العبيد فى فلح الأرض وفى الخدمة المنزلية .

ونظام الرق يعنى واحدا من أبرز أهم النظم الاجتماعية والانسانية ، ومعظم المجتمعات البشرية عرفته فى طور أو آخر من أطوار حياتها ، ولذلك يعده علماء الاجتماع نظاما عالميا أى نظام انتشر فى شتى المجتمعات والرق على درجات فى المجتمعات البدائية ، فهناك نوع من الرقيق يعامل كما يعامل الحيوان يباع ويشترى ويرهن ويقتل ... ورقيق يعدون آدميين ويدخلهم السيد ضمن أسرته كأفراد متبنين . وللرق فى المجتمعات البدائية رافدان : أولهما داخلى ، وهذا لا يوجد الا فى المجتمعات البدائية التى تطورت الى نوع من الاقتصاد الشبيه بالرأسمالى حيث يسود الاقتراض

والاقراض ، فالمقترض يستطيع أن يرهن نفسه أو ابنته أو ابنه حتى يسدد دينه ، وإذا لم يصل إلى تسديد الدين فى الميعاد فان الشخص المحتفظ به كرهينة يصبح رقيقا .

وفى قبائل الاشانتى الأفريقية يحق للرجل أن يرهن ابن أخيه ليحصل على المال وفى هذه الحالة يعمل الصبى عند الدائن حتى يسدد الدين ، والعمل الذى يؤديه يعد فائدة للمبلغ المقترض . وثمة رافد داخلى آخر وهو استرقاق بعض فئات المجرمين وهذا لا يوجد أيضا الا فى المجتمعات التى تطورت فيها النظم القانونية بحيث يكون الرق عقوبة توقع على بعض الجرائم ، وقد عرفت المجتمعات القديمة ومجتمعات العصور الوسطى هذين الرافدين .

أما الرافد الأكبر للرق فهو الحروب ، وفى المجتمعات المتطورة يسود الاسترقاق للافادة من الرقيق ، أما فى المجتمعات الشديدة البدائية فلا يسود استرقاق أسرى الحروب لسببين : أولهما أن العلاقة قائمة فى العشيرة أو القبيلة على أساس القرابة ولا مكان لايجاد علاقة بين الزمرة وشخص أجنبى ، وعلى ذلك فأسرى الحروب فى مثل تلك المجتمعات أما أن يقتلوا أو يضموا بالتبنى للزمرة .

أما السبب الثانى فهو أن تلك المجتمعات تكون عادة فقيرة ولا تحتمل اتخاذ عبيد أو أرقاء يقع على عاتقها أكلهم ورعايتهم بدون وجود عمل لهم وذلك كالمجتمعات التى يسود فيها نظام الصيد وجمع الثمار وقطفها . وقد قام هبهاوس وهويلر وجنزبرج بدراسة العلاقة بين نظام الرق من جهة والمستوى المعيشى والنظام الاقتصادى فى المجتمعات البدائية والقديمة من جهة أخرى ، ولوحظ أن الرق يزداد فى المجتمعات كلما تطورت اقتصاديا من نظام

الصيد الى نظام الزراعة : فلا يوجد نظام الرق فى المجتمعات ذات نظام الصيد المتأخر الا فى ٢٪ منها وفى نظام الصيد المتطور فى ٣٢٪ وفى نظام الزراعة المتأخرة ٣٧٪ وفى نظام الزراعة المتوسطة ٤٦٪ وفى نظام الرعى المتوسط ٧١٪ وفى نظام الزراعة الراقية ٧٨٪ ويسود نظام الرق الآن فى عدد كبير من المجتمعات البدائية : ففى أفريقية يوجد عند معظم المجتمعات البدائية ولا سيما عند قبائل باهيما ولكن قبائل جنوب أفريقية المتطرف لا تعرفه ، وكذلك لا يوجد الآن فى سيبيريا ولا فى أواسط آسيا ولا الهند .

وفى أمريكا يوجد الرق لا سيما عند قبائل الشاطىء الشمالى الغربى ، وعند الهنود الأمريكيين فى الجنوب الغربى لا يوجد نظام الرق ، بالرغم من أنهم يعملون بالزراعة واقتصادياتهم أكثر تطورا من نظم هنود الشاطىء الشمالى الغربى ، وكل ما يوجد لديهم بعض الأسرى من الأطفال .

(ب) الحياة الدينية عند المجتمعات البدائية

من المقرر أن الدين نشأ مع الانسانية فى قدمها ، فلا صحة لما ذهب إليه بعض الباحثين أمثال « لوبوك » فى كتابه (أصل الحضارة) من الزعم بوجود جماعة انسانية أولى ينعدم فيها كل اعتقاد دينى ، فجميع ما قدمه هذا الفريق من العلماء من شواهد وأمثلة وأدلة لم يوافق عليها الباحثون فيما بعد ولم تقف أمام النقد العلمى النزيه . ويبدو أن الذين يدعون أن الانسان الأول لم يعرف الدين ، يفهمون من الدين أضيق حدوده وهو الاعتقاد بوجود اله أو قوة خفية كامنة مسيرة لشئون العالم الطبيعى ، بل أن هذه المجتمعات الأولية البدائية التى يزعم هؤلاء العلماء أنها كانت تعيش حياة لا دينية لابد وأن يكون نظامها الدينى من التعقيد

والتشابك والارتباط بنواحى النظام القائم فى تلك المجتمعات ، مما يجعل من الصعب على العالم أن يستخلص ظواهرها الدينية خالصة نقية وبذلك غمض أمرها وعز اكتشاف مظهرها الدينى .

هذا بالاضافة إلى أن الباحث فى أمور الدين وتحديد مفهومه ، يجد نفسه أمام ألوان متباينة من الديانات لا تكاد تجمعها وحدة عامة . ولذلك فقد توصل الانثروبولوجيون الذين بحثوا فى موضوع نشأة الدين إلى عدد من المذاهب . والملاحظ أن هذه المذاهب لا تقوم على أساس وضعى ، وانما تقوم على أساس افتراضى بحت ، يخضع لآراء الفلاسفة والبحاث الذين حاولوا تفسير نشأة الدين وفق المذاهب التى يسلمون بها . وقد حاول أصحاب هذه التفسيرات أن يتخذوا من المجتمعات البدائية المعاصرة مادة يعتمدون عليها فى تأكيد وجهة نظرهم باعتبار أن هذه المجتمعات تمثل المجتمعات الانسانية الأولى التى ظهرت على وجه الأرض - أو هى قريبة منها إلى حد كبير . وعلى ذلك فان النظم الدينية التى تسودها تمثل نشأة الأديان .

ونلاحظ أن هذا المنهج ليس منهجا علميا ، وذلك لأن هذه المجتمعات لا يمكن أن نقبلها على أنها ممثلة للشكل الأول للمجتمعات الانسانية فى فجر نشأتها إذ أن كل مجتمع انسانى يخضع لمبدأ التطور ، ولا يمكن أن يظل على الحالة الفطرية الأولى التى وجد بها ، ولذلك فان المجتمعات الانسانية المتخلفة فى الحضارة ، والتى نسميها تجاوزاً بالمجتمعات البدائية لا تمثل بالدقة المراحل الأولى للانسانية وانما هى تمثلها إلى حد ما ، أو هى أقرب المجتمعات شبها بها ومن ناحية أخرى نلاحظ أن أصحاب هذه المذاهب يحاولون تعميمها على جميع المجتمعات الانسانية ،

وفكرة التعميم هذه أن كان يمكن تطبيقها فى العلوم الطبيعية ، الا أنه من الصعب التسليم بها فيما يتعلق بالعلوم الاجتماعية .

ومن أهم المذاهب التى ظهرت فى تفسير نشأة الدين فى المجتمعات البدائية ما يلى :

- المذهب الطبيعى .
- المذهب الحيوى .
- المذهب التوتمى .

أولا ـ المذهب الطبيعى :

يرى أصحاب هذا المذهب أن الدين محاولة أولى قام بها العقل الانسانى لتفسير الظواهر الطبيعية ولا سيما تلك الظواهر التى تثير فى النفس العجب والدهشة أو الخوف والرهبة . ويمكن تقسيم أصحاب هذا المذهب إلى فريقين :

فريق يرى أن العامل فى آثارة الفكرة الدينية هو التأمل والنظر فى مشاهد الطبيعة ، تأملا يجعل الانسان يشعر بمزيد من الدهشة والاعجاب ، ويخلص من التفكير إلى أنه محاط بقوى مستقلة عن ارادة البشر يخضع أفراد المجتمع لتأثيرها ، ولا قدرة للأفراد على تعديل نظامها ، ومن أشهر القائلين بذلك العالم ماكس مولر Max Muller .

والفريق الثانى وعلى رأسه العلامة جيفونز Jevons ، وهو يرى أن التأمل والنظر فى الظواهر الطبيعية العادية لا يكفى لآثارة الفكرة الدينية وانما الذى يثيرها هو الطبيعة الشاذة العنيفة كالعواصف والزلازل والبراكين والرعد والبرق ، فهذه الحوادث الرهيبة تبعث الفزع والخوف بنفس الانسان وتجعله يستفسر عن

مصدرها فينسبها إلى قوة خفية غيبية ، هذه القوة الخفية هى التى تسير العالم ولابد من العمل على أرضائها بتقديم الهدايا والقرابين والاضاحى . وعلى ذلك يكون شعور الرهبة والخشوع أسبق أثراً ق التدين من شعور الاعجاب والدهشة الذى يأتى عن طريق التأمل ق الظواهر العادية الرتيبة غير أن شعور الرهبة والخوف من الظواهر الطبيعية أو من القوى الغيبية لا يكفى وحده لتفسير نشأة الفكرة الدينية ، ذلك لأن الفكرة الدينية لا تقوم على الرهبة والخشية فحسب وأنما يوجد إلى جانب ذلك الشعور والاحساس بالحاجة والتطلع إلى المساعدة والمعونة ، وهذا ما يفسر طقوس الصلاة والدعاء والتقرب إلى تلك القوى الخفية .

ثانيا ـ المذهب الحيوى أو الروحى :

ينسب هذا المذهب عادة للعالم الانجليزى تايلور Taylor ق كتابه « الحضارة البدائية Primitve Civilization " ويذهب تايلور إلى أن أقدم ديانة هى الاعتقاد ق الأرواح وعبادتها ، ويقرر أن الاعتقاد ق النفس الانسانية هو الفكرة الرئيسية ق هذا الدين البدائى ، وهنا يتساءل كيف أصبحت النفس الانسانية موضوع عبادة ؟ وكيف تحولت النفس إلى روح ؟ ق نظر تايلور نشأت الفكرة من اعتقاد الانسان البدائى ق الحياة المزدوجة التى يحياها ق يقظته من ناحية وق نومه من ناحية أخرى ، فقد تصور الرجل البدائى الحياتين على اعتبار أنهما حقيقتان واقعيتان ، بمعنى أن ما يراه ق نومه يعبر تعبيراً يقينا عن حياة حقيقية لها مقومات الحياة التى يحياها أثناء اليقظة ، فحين يحلم أنه زار بلادا بعيدة يعتقد عن يقين أنه زارها بالفعل .

انتهى البدائى بعد ذلك إلى القول بأن الانسان مكون من

كائنين ، أحدهما الجسد وهو الكائن الموجود فى المكان الذى نام فيه وله صفات مادية من حيث الاستقرار وعدم الانتقال والتحيز فى مكان . والكائن الثانى كائن آخر له قدرة على الانتقال من مكان إلى مكان فى الوقت الذى يكون فيه الجسم فى حالة نوم . ومن التجارب المتعددة التى تحدث للبدائى فى نومه وما يتراءى له من أحلام يثبت له أن هناك كائنا آخر غير الجسم يستطيع فى ظروف معينة أن يترك هذا الكائن الجسم وأن ينطلق بعيدا . هذا الكائن هو النفس . والنفس فى نظر كثير من المجتمعات البدائية لها القدرة على الاضرار وأنزال النكبات بالناس من عالمها الخفى وهذه النفس برغم قدرتها المادية لا يمكن أن نلمسها أو نحسها ، ولا تعتبر النفس الانسانية روحا لأنها متصلة بالجسد ولا تخرج منه الا نادرا ، وهى لا تعيد ولا تصبح روحا مقدسة الا فى حالة الموت وعندئذ لا يستطيع الانسان أن يتصل بها الا بمراعاة طقوس خاصة .

واعتقد البدائى أن الأرواح تزداد شيئا فشيئا إلى أن يتكون عالم من الأرواح حول العالم الحسى ، ولكل روح ميولها الخاصة ، وتحاول كل روح المشاركة فى حياة أصحابها سواء بمساعدتهم أو بأنزال الضرر والآلام بهم ، ويتكيف موقفها بما يحتفظ به من مشاعر وعواطف نحو هؤلاء الأفراد .

واعتقد البدائى أن جميع ما يصيب النفس الانسانية من نجاح وتوفيق أو من آلام ومصائب انما يرجع إلى تلك الأرواح أو إلى العالم الروحى ، وزاد ما لهذه الأرواح من قوة وقدرة فأصبح بينها قوى الصحة والمرض والسعادة والشقاء وبذلك أصبح الانسان ملزما بأن يرضيها وأن يتخلص من غضبها ، وأن يتقرب اليها بالقرابين والاضحية والصلوات ، وبهذا يفسر تايلور انتقال فكرة

النفس الانسانيةمن مبدأ حيوى فى جسم إلى أن تصبح روحا أو قرينا خيراً أو شريراً أو مالها .

وإذا كان الموت هو الذى حول تلك النفس الانسانية إلى روح مقدسة فان أول عبادة انسانية فى تصور تايلور أنما اتجهت إلى عبادة الموتى ، أى عبادة نفوس الأسلاف وكانت الطقوس الأولى طقوسا للموت وكانت أول القرابين قرابين غذائية تشبع حاجات الموتى ، وكانت أولى المذابح التى تقوم عليها هذه القرابين هى القبور واللحود .

النظرية التوتمية فى نشأة الدين ، أو المذهب التوتمى :

التوتم هو الرمز الذى تتخذه العشائر البدائية لنفسها سواء كان مستمدا من المملكة الحيوانية أو النباتية أو القوى الطبيعية أو الجماد . وأهم العناصر فى التوتمية أن أفراد العشيرة يعتقدون أنهم منحدرون فعلا من هذا التوتم ، فهو الأصل فى وجودهم . ويترتب على ذلك أن الأفراد الذين ينتمون إلى نفس التوتم يعتبرون أنفسهم أقارب فيما بينهم ، ومعنى ذلك أن القرابة لا تقوم على أساس وحدة الدم وأنما يربط أفراد القبيلة قرابة اصطلاحية معنوية ، تقوم على أساس اشتراكهم فى اتخاذ التوتم أسما لهم واتحادهم فى النظم الاجتماعية واشتراكهم فى نفس العادات والتقاليد والطقوس الدينية التى يلزمون بأدائها نحو التوتم .

وتقوم الديانة التوتمية على أساس تقديس توتم العشيرة تقديسا يحرم لمسه إذا كان جمادا الا فى مناسبات دينية خاصة بقصد التبرك وقضاء حاجات والتفكير فى خطيئة أو رفع كارثة

احاطت بالمجتمع ، كما يحرم قتله أو صيده أن كان من الفصيلة الحيوانية ، ويحرم أكله أو قطفه أن كان من المملكة النباتية .

أول من استعمل كلمة توتم Totem كاتب هندى أسمه لونج Long فى كلامه عن النظم الدينية للهنود الحمر فى أمريكا ، وقد كان المعروف أن القبائل الهندية الأصلية فى أمريكا تمثل أقدم وابسط المجتمعات البشرية ولما كانت هذه المجتمعات تدين بالديانة التوتمية استنتج أصحاب المذهب التوتمى أن هذه الديانة هى أقدم الديانات الانسانية بوجه عام . ثم بدأ عالم آخر هو جراى Gray بحثه فى استراليا بين السكان الأصليين ، وانتهى من بحوثه إلى تقرير وجود عبادات وطقوس دينية توتمية عند السكان الأصليين فى استراليا . وبدأت جهود علماء الانثروبولوجيا بعد ذلك نحو أثبات أن التوتمية ، نظام دينى عام مرت به الانسانية فى مراحل نشأتها الأولى . وحاول العالم ماكلينان Mac Lenan أن يصل بين التوتمين وبين مجموعة كبيرة من العقائد والعبادات التى تقوم على أساس تقديس الحيوان والنبات عند الأمم التاريخية القديمة ، والواقع أن ماكلينان خلط بين الديانة التوتمية وبين تقديس الحيوان والنبات . ثم قامت محاولات بعض العلماء بتطبيق المذهب التوتمى عند الشعوب السامية ، ومن هؤلاء العلماء روبرتسون سميث Rob-ertson Smith ـ فقد حاول هذا العالم أن يثبت أن العرب كانوا يعبدون الديانة التوتمية ، واستدل على ذلك بوجود أسماء قبائل عربية مستمدة من المملكة الحيوانية والنباتية أو من الظواهر الطبيعية والجماد ، غير أن العناصر التوتمية لا تتوفر عند العرب ولا عند الساميين . كذلك لاحظ الباحثون فى الديانة التوتمية وجود ترابط بين الديانة التوتمية ونظام الزواج من الخارج Exogamy وهو الزواج من خارج أفراد العشيرة . وبمقتضى هذا النظام تقسم

القبيلة إلى عشائر ، والعشيرة إلى بطون ، ولكل بطن توتمها الخاص بها فلا يستطيع الرجل فى بطن أن يتزوج امرأة من نفس البطن إذا كانت تشترك فى توتمه ، وأنما لابد له من أن يتزوج من امرأة لا تشترك فى نفس التوتم .

وقد قام دوركايم بتحليل النظام التوتمى ، فوجد أن التوتمية هى اقدم الأديان أطلاقا ، وأنها متصلة اتصالا وثيقا بكل تكوين اجتماعى تكون العشيرة أساسه ، بل أن العشيرة فى أبسط صورها لا يمكن أن توجد بدون التوتم ، إذ أن أفراد العشيرة لا يكونون عشيرتهم على أساس المعاشرة والسكنى أو صلة الدم وانما وحدتهم تقوم على أساس اشتراكهم فى الاسم والرمز التوتمى وبما لهم من علاقات معينة بمجموعة من الأشياء وخاصة من الحيوانات ، أو بمعنى عام باتخاذهم عبادة توتمية ، ولتقديس النوع التوتمى فان كل فرد من أفراد العشيرة يعتبر نفسه كائنا مقدسا ، ذلك لأن البدائى الذى يدين بالتوتمية يعتقد أنه يشارك فى طبيعة النوع التوتمى الذى يحمل اسمه ، فالاسم عند الرجل البدائى ليس كلمة فحسب بل أنه جزء جوهرى من طبيعة الكائن الذى يطلق عليه ، فكل فرد من أفراد العشيرة يعتبر الحيوان الذى يشير إليه التوتم من طبيعته وهو من طبيعة الحيوان نفسه ، ويستنتج من هذا أن القبائل التوتمية حاولت أن تقيم بين الانسان والحيوان التوتمى علاقات وراثية .

وهناك أنواع من التواتم يتخذها الأفراد إلى جانب التواتم التى تتخذها القبيلة ، وهذا ما يطلق عليه التوتم الفردى . فقد لاحظ كثير من العلماء أنه فى بعض القبائل الاسترالية والأمريكية توجد علاقة بين كل فرد فى القبيلة بشىء معين ، وتشبه هذه العلاقة علاقة العشيرة بتوتمها ، والصلة بين الفرد وهذا الشىء تشبه إلى

حد كبير الصلة بين عضو العشيرة وتوتمها . ويعتبر التوتم الفردى ذا طابع خاص يميز الفرد عن بقية أفراد العشيرة ، فاسم التوتم الفردى يطلق على الشخص بجانب أطلاق توتم العشيرة عليه ، ولهذا الاسم صفة دينية فهو يستخدم فقط فى الحفلات الدينية الهامة ولا ينطق به فى الظروف العادية فى الحياة ، وفى بعض القبائل ينقش على الاجساد والأسلحة والبيوت ، ويستعمل كعلامة أو دليل على الملكية الفردية . ومبادىء التوتمية الفردية هى نفس مبادىء التوتمية فى العشيرة ، فيتفق الاثنان فى الاعتقاد بتلك الروابط الحيوية التى توجد بين الفرد والتوتم الذى يتسمى باسمه ، فالانسان يشارك فى طبيعة الحيوان الذى يتخذ منه توتمه وله صفاته كما أن له نقائصه ، فمثلا من يسمى « صقر » يمتلك صفات متعددة من قوة وبعد نظر والرؤية من بعد ، ومن يسمى « دب » مثلا يكون بطىء الحركة ولذلك يتعرض للقتل فى المعارك . وتعتقد القبائل البدائية أيضا أن مصير كل انسان وتوتمه يعتبر واحد وبينهما تضامن وتناسب مطلق ، فكل شىء يلحق بالتوتم يؤثر تأثيرا فعالا على الفرد الذى يحمل اسمه ، والتوتم من ناحية أخرى يحمى الفرد الذى يحمل اسمه .

وهناك تفسيرات متعددة للتوتمية الفردية ، فمثلا نجد فريزر يفسر التوتمية الفردية بأنها العبادة التى يتجه بها الفرد نحو حاميه ، وبذلك تمتاز التوتمية الفردية عن توتمية العشيرة وإذ ترى العشيرة أنها أنحدرت من سلالة الحيوان أو النبات أو الجماد الذى تتخذه توتما لها ، فانه فى حالة التوتم الفردى لا يرى الفرد بينه وبين توتمه الفردى أى علاقة سلالية ، فليس التوتم سلفا له ولم ينحدر منه الانسان ، وانما التوتم الفردى مجرد صديق أو حامى تربطه بالفرد علاقة محبة وتضامن .

وهناك اختلاف بين التوتم الفردى وتوتم العشيرة فى طريقة اختيار كل منهما فتوتم العشيرة وراثى يكتسبه الفرد منذ ولادته دون أى اختيار ، أما توتم الفرد فيكتسب عادة بإرادة الفرد وباختياره وبتجاربه الدينية لا سيما فى الفترة التى يصل فيها الفرد إلى طور المراهقة أو البلوغ ، وفى خلال الفترة التى يقضيها فى عزلته حين يقوم بطقوس دينية تتميز بالعمليات العنيفة من رقص وصيام ، وتتولد لدى الفرد حالة عصبية وتطرأ عليه هلوسات واحلام مختلفة ، وفى هذه المرحلة من الضعف النفسى وهو يستعد للانتظام فى حياة الجماعة ، يختار توتمه الفردى ويجعل منه حاميا وصديقا .

الخلاصة

الواقع أن كل المذاهب سابقة الذكر وغيرها قد تعرضت للكثير من النقد وكل النظريات التى حاولت تحديد الديانة الأولى بتطبيقها على المجتمعات البدائية أنما هى افتراضات تبدو أحيانا غير سليمة وتبدو أحيانا أنها تلفيقية ، وهى نظريات فلسفية احتمالية خيالية لا يمكن أن تعتبر نظريات بالمعنى الصحيح ، ويمكن أن ينسب للنظريات التطورية خطا فى المنهج إذ أن الباحثين الذين تناولوا نشأة الدين فهموا من نشأته الصورة التى ظهرت فى الأديان أول ما ظهرت فى الوجود ، والمنهج الذى سلكوه هو دراسة اديان المجتمعات القديمة والمعاصرة المختلفة فى الحضارة ، واستخدموا الطريقة القياسية فى استنتاج أقدم مظهر معروف من مظاهر التفكير الدينى ، واستخلصوا من ذلك أنه يعتبر صورة مطابقة للديانة الأولى للانسان . والاستدلال على أن ديانة الانسانية الأولى كديانة المجتمعات البدائية ، مبنى على افتراض أن هذه المجتمعات ظلت بمعزل عن التيارات الحضارية وبذلك فهى لا تزال تمثل الانسانية الأولى .

وهذا الافتراض لا يقره البحث العلمى إذ أن المجتمعات الانسانية تتطور بحكم أنها مجتمعات انسانية ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى ، ان علماء الاجناس لم يتفقوا فيما بينهم على تحديد أى المجتمعات البدائية الموجودة الآن أقدم عهدا أو أيهما أقرب إلى الحالة الأولى ، فنظرية دوركايم مثلا بنيت على أساس أن قبائل استراليا الوسطى أقدم هذه القبائل لا تمثل أقدم القبائل ، بل يذهب البعض إلى أن قبائل الزنوج الاقزام فى أفريقيا هى التى تمثل الآن أكثر المجتمعات بدائية ، وقد عبر هوفدينج Hoffding عن هذه الحقيقة بقوله أن تاريخ الأديان لا يصور لنا نشأة الأديان وبدايتها وأنما كل ما نستطيع أن نجده أنما هو سلسلة من صور مختلفة لديانات متقدمة قليلا أو كثيراً حتى أن أكثر القبائل همجية ، والتى نعرفها الآن قد مرت قبل ذلك بأدوار شتى وتطورات تبعدها عن الحالة البدائية التى كانت عليها فى نشأتها الأولى .

الخاتمة

عرضنا فى هذا الكتاب أهم فروع وأقسام علم الانسان (الانثروبولوجيا) وأن كان العلم يتضمن العديد من النقاط التى لم يتطرق اليها البحث ، من ذلك مثلا :

(أ) الفن عند البدائيين ولا سيما الفن التصويرى والفن التشكيلى وتطورها منذ العصور الحضارية الأولى وفى المجتمعات البدائية المختلفة وما يتعلق بذلك من فن النقش على الرمل والوشم وتزيين الاجسام ، ومن استخدام الريش فى الزينة ثم الملابس .. ثم النحت وتشكيل الخزف والطين .. وفنون العمارة والبناء .. وكذلك الفنون الصوتية كالغناء والموسيقى والأدوات المستخدمة فيها ثم فن الرقص .

(ب) الانثروبولوجيا الطبية وتتضمن نظرة البدائيين إلى الصحة والمرض ، والمعلومات الطبية لديهم ووسائلهم الطبية الوقائية والعلاجية .

(جـ) المعلومات العامة لدى البدائيين ، عن الأرقام مثلا واستخداماتها أو عن الفلك أو الهندسة .

والواقع أن علم الانسان علم واسع المجال يتضمن جميع جوانب الحياة لدى الجماعات البدائية وحسبنا أن أعطينا القارىء فكرة عن أهم هذه الجوانب واجتهادات علماء الانثروبولوجيا فى كشف النقاب عن العديد من الظواهر والممارسات الاجتماعية عند الجماعات التى تعتبر فى نظرهم أكثر الجماعات تمثيلا للمجتمعات البدائية .

بعض المراجع

١ ـ أحمد الخشاب ، « دراسات انثروبولوجية » ، دار المعارف ـ القاهرة ١٩٧٠

٢ ـ أ. أ. ايفانز بريتشارد ، ترجمة أحمد أبو زيد « الانثروبولوجيا الاجتماعية » منشأة المعارف ـ الاسكندرية ١٩٦٠

٣ ـ حسن شحاته سعفان « علم الانسان ـ الانثروبولوجيا » منشورات مكتبة العرفان ، بيروت ١٩٦٠

٤ ـ حسين فهيم « قصة الانثروبولوجيا » عالم المعرفة ، العدد ٩٨ سنة ١٩٨٦

٥ ـ فاروق محمد العادلى « دراسات فى علم الاجتماع والانثروبولوجيا الاجتماعية » الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ الاسكندرية ١٩٧٤

٦ ـ محمد السيد غلاب « تطور الجنس البشرى » دار الطالب لنشر ثقافة الجامعات ـ ١٩٥٧

1 – A. Paul, M.A., " A history of the Beja Tribes of the Sudan ", Cambridge, The University Press. 1954 .

2 – Evans Pritchard, E. E.; Nuer Religion, O.U. P. London, 1956 .

3 – Lowie, R.H., Primitive Society, London, 1920 .

4 – Malinowski, B., The Sexual Life of Suvages; Routledge and Kegan Paul, London, 1952 .

5 – Malinowski, B., Magic, Science and Religion, and other Essays, Glencoe (Illinois), 1948 .

6 – Radcliffe - Brown, A.R., " the Social Organization of Australian Tribes, Melbourne, 1931 .

7 – Ralph L. Beals, Harry Hoijer, An Introduction to Anthropology, The Macmillan Company, New York, 1973 .

فهـــرس

صفحة

ـ الفصـل الخامس :

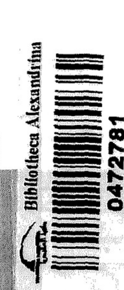
صفحة

رقم الايداع بدار الكتب

١٩٩٠ / ٤١٣٣
I.S.B.N.G-77-335-003-U



مطابع الأهرام بكورنيش النيل



الثمن خمسون قرشا

مطابع الأهرام بكورنيش النيل